سلسلة شهادات سورية 15

انسَ دمشق

عمر يوسف سليمان

بيت المواطن
للنشر والتوزيع

انسَ دمشق

يوميات الثورة والحرب والمنفى

عمر يوسف سليمان

انسَ دمشق

يوميات الثورة والحرب والمنفى

سلسلة شهادات سورية -15- انسَ دمشق
عمر يوسف سليمان

الإخراج الفني: فايز علام
صورة الغلاف: عدسة شاب دمشقي (http://dimashqilens.com)
تصميم الغلاف: فادي العساف

الطبعة الأولى ـ 2015

ISBN: 978-9953-583-61-7

تمت طباعة هذا الكتاب بدعم من المنظمة
الأورو ـ متوسطية لدعم المدافعين عن حقوق الإنسان

جميع الحقوق محفوظة للناشر. لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأية طريقة سواء أكانت إلكترونية، أم ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل، أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية مسبقة من الناشر ومقدماً.

الناشر:
بيت المواطن للنشر والتوزيع
دمشق ـ الجمهورية العربية السورية
هاتف: 78840213 961+
بريد إلكتروني:
baitelmouwaten@gmail.com

التوزيع:
أطلس للنشر والترجمة والإنتاج الثقافي
شارع الحمرا ـ بناء رسامني
ص.ب: 6435 / 113 بيروت ـ لبنان
هاتف: 750054 1 961 +
فاكس: 750053 1 961 +
بريد إلكتروني:
atlasbooks@gmail.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن آراء الناشر.

إهداء

إلى أمي

آخر مشهد

1

أعود إلى أول شارع سكنت فيه بباريس، كان اسمه «شارع الجنة»، لكن الحقيقة أنني كنت في جهنّم، أقف مقابل البناء، حيث عشت شهراً في غرفة الخدَم ذات السقف المثلث، كنت حين أخرج لا أجرؤ على الابتعاد أكثر من عشرين متراً، كي لا أضيع، لم أكن أعرف شيئاً عن اللغة الفرنسية، المنفيّ يعود ولداً، عليه أن يتعلّم النطق وأساليب الحياة من جديد.

كيف مضى كل هذا الوقت؟ أين أنا الآن؟ وماذا أفعل هنا؟ لا أعرف، لقد توقف الزمن عندما خرجت من سورية، لكن العام الأول من الثورة، الذي عشته هناك، ما زال في ذاكرتي كأنه فيلم، وحيداً أجلس في أحد بارات الشارع، على طاولة البار شمعة، أشعِلها، ترتجف الشعلة، ثمة شمعة كانت ترتجف في مكان آخر منذ سنوات.

19 آذار/ مارس 2012

في منزل إحدى الصديقات بمدينة «جرمانا» المحاذية لدمشق،

والكهرباء مقطوعة، كنا نحتفل بعيد ميلادي، وبمرور عام على بدء الثورة، لم يكن لدينا ما يكفي الحفل، لكن لم ينقصنا شيء لنفرح، فلدينا شمعة، وقنينة عرَق بلديّ، إضافة إلى ليل دمشق، كنت أتساءل: هل سأغادر سورية بعد غد؟ سبق أن جاءتني اتصالات عدة من أصدقاء خرجوا حديثاً من فروع المخابرات الجوية والعسكرية، «سألونا عن مكانك، أنت متّهم بالتواصل مع جهات خارجية وبالإدلاء بتصريحات عبر فضائيات مُغْرضة، يجب أن تغادر، إذا اعتقلوك لن تخرج حياً».

غادرت حمص بداية عام 2012، واختبأت في دمشق، ثلاثة أشهر مرت وأنا في إحدى الحارات القديمة من حي «برزة». لم تكن بيوت الثوار لأحد، بل للجميع، كما الطعام والمال، حالة اشتراكية عمّت المدن المنتفضة، لكن بقائي في هذا الحي لم يعد ممكناً، فقد تعرّض لعدة مداهمات نجوتُ منها بأعجوبة، هكذا خرجتُ منه إلى حَي «قدسيا»، ثم عدت إلى «مساكن برزة»، وأخيراً وصلت إلى «جرمانا»، إلى متى ستستمر هذه الحال؟ لا أفعل شيئاً هنا، لا أنظّم مظاهرات ولا أشارك في أي نشاط، السلاح ملأ البلاد، وكل ما أقوم به هو التواصل عبر الإنترنت مع الرفاق في حمص ودمشق.

21 آذار/ مارس 2012

السيارة جاهزة، ناشطان من درعا يعرفان الطرق الخالية من الحواجز، تجاوزنا «باب شرقي»، ثمة فجوة في هذا الباب لم ألاحظها من قبل، وصلنا إلى القلعة، ثم دوّار «كفرسوسة». وجوه الأطفال، المحلّات، هواء الربيع والورد على الشرفات، كانت كلها جديدة، كأنني أراها لأول مرة وأنا أغادر دمشق للمرة الأخيرة.

في الطريق الدولي، كان السائق يحدّثني عن عمليات اقتحام لإحدى قرى «حوران» أمس، وصلنا إلى «درعا»، تبدو شوارعها ضخمة

وطويلة، ومن الصعب تذكُّر قراها لكثرتها، ولأن أرضها مسطحة فإنه يسهل اقتحامها. الساعة الحادية عشرة ليلاً، في «مضافة» أحد البيوت، رحّب بي «أحمد» الذي نظّم عملية خروجي، كان يدرس اللغة العربية في جامعة دمشق، ومع بداية الثورة فُصل من الجامعة بسبب اشتراكه في المظاهرات.

ثلاثة عناصر من الجيش الحر يتحلقون حول مائدة مفروشة على الأرض، تحدّثنا عن الخلافات الكثيرة بين النشطاء و«المجلس الوطني»، الذي لم يكن معظم السوريين يعرفون كيف تمت عملية تشكيله، ولا ماذا يقدّم للثورة، كان علينا أن نخلق مجلساً وطنياً خاصاً بنا، وهذا ما لم نستطع فعله في ظل نظام فاشي يمنع تحركاتنا وتواصلنا، فضلاً عن انعدام إمكانية أن نجري انتخابات ديمقراطية!

أحد العناصر كان ذا لحية كثّة وشارب محلوق، قاسي الملامح، سلفيّ الحديث، أكّد ضرورة التواصل مع السعودية لتمويل المعارضة، الثاني كان يسرد جملاً غير مترابطة ويبكي، هرب من حمص منذ وقت طويل بعد أن قُتل جميع إخوته، الثالث درعاوي، قال بضرورة اقتحام أحد الحواجز: «قد يذهب بعض الضحايا، لكننا سنستولي على كثير من الأسلحة»، اعترض الباقون، أما «أحمد» فقد كان صامتاً يتابع الأخبار عبر جوّاله، اقتربت منه: «لماذا لا تخرج؟ لم يعد لديك ما تفعله هنا!»، «هي معركة بديتها وما عاد إقدر إطلع منها»، أجابني.

«هل انتهت الثورة حتى تخرج؟ لماذا لا تبقى معنا؟»، سألني السلفيّ، لم أجبه، لكنني طرحت السؤال ذاته على نفسي في غرفة النوم المخصصة لصاحب المنزل، الذي رفض أن أنام في المضافة. كانت الغرفة مطلّة على سهول حوران، تحوي ديكوراً فخماً وسريراً مزدوجاً. يبالغ الحوارنة بتأثيث منازلهم المنفصلة أحدها عن الآخر، والمفتوحة على العالم، كأنها خيام ضخمة من الرخام. لم أستطع النوم، منذ عام

وأنا أنام على الأرض، أو فوق سرير ضيق، دون ملابس نوم حتى، الآن، هكذا تودعني سورية، في آخر ليلة، بكرم كبير، ومرير.

2

يبعد عنا المعبر الرسمي الذي يسيطر عليه النظام بين سورية والأردن مسافة كيلومتر واحد، لكننا انعطفنا يميناً، حتى وصلنا إلى قرية «نصيب» الحدودية، تركني السائق بعد أن قدّمني إلى شيخ يرتدي الكوفية ويُدعى «أبو عدنان»، قام بإيصالي إلى باحة دار عربية حيث يتجمع الرجال الهاربون، «نصيب» شديدة الفقر، لا شيء فيها سوى بعض المحلات التجارية الصغيرة، كانت العائلات التي تود الخروج تتوافد من جميع المحافظات، يستقبلها «أبو عدنان»، يوصل الرجال إلى داره ويترك النساء مع زوجته في غرفة مخصصة لهن بدار مجاورة.

جلس بجواري رجل هرم من حمص، من «باب السباع»، قُتل ابنه وتهدّم بيته، سيخرج اليوم مع زوجته، شاب يده مقطوعة، وآخر يعرج، تلمع شمس الظهيرة على الجبيرة البيضاء الملفوفة حول قدمه، كان قد أصيب خلال إحدى المعارك قرب «درعا البلد»، «أنا خارج للعلاج، وسوف أعود قريباً، وأصطاد شبّيحة النظام»، قال ممدداً ساقه على إحدى مصطبات الدار.

3

أطلب كأساً ثانيةً من الكونياك، مطرٌ يصفع أضواء الشارع، في البار شابان وفتاة ينظرون إليّ بغرابة، ربما يظنونني معتوهاً أو مشرداً،

رأسي يبعد عنهم متراً واحداً، لماذا لا يرون ما في داخله من خراب؟ أرفع كأسي كمَن يحيّيهم، يديرون وجوههم، الشمس مسرعة في الغياب، الغيوم ثقيلة، والسماء معدنية، الساعة الخامسة عصراً هنا، كم هي الآن في سورية؟

لم يكن ممكناً أن ننطلق قبل الساعة السادسة كي نصل إلى الحدود ليلاً، فالظلام سيحمينا، مرت الساعات مملة، أخيراً عاد «أبو عدنان»، طلب منا الخروج، كنا عشرين شخصاً من النساء والأطفال والرجال مع حقائبهم أمام سيارة «بيك آب»، حُشرنا في مؤخرة السيارة، سارت في طرق شديدة التعرّج، كانت تخضّنا بداخلها، كأنها تترجم غضب هذه الأرض على رحيلنا، كم مؤلم أن تكون محبطاً ومكتئباً وأنت في سيارة تقلب أمعاءك! أخيراً وصلنا إلى طريق جبليّ، ترجّلنا، لا شيء حولنا سوى الصخور والحشائش، والكشّاف المكلّف بإيصالنا حتى الحدود، وقد سار أمامنا حاملاً منظاراً ليلياً.

عند أحد المنعطفات الصخرية، بعد أن مشينا ساعة كاملة، وقد اختفت الشمس، بدأ بعضنا يتوقف للحظات، يضع الحقيبة، يتنفس بعمق، ثم يتابع. لم نعد نقوى على مواصلة السير، إحدى النساء جلست وهي تلهث، رجا زوجها الكشّاف أن نرتاح قليلاً، لكنه رفض، فقد أصبحنا في منطقة الخطر، أشار علينا بأن نلتزم الصمت، فنقطة المراقبة التابعة للنظام تبعد عنا من جهة اليمين مسافة خمسين متراً فقط.

كل مَن يسير في الجهة اليمنى مُعرّض للإصابة أو القتل، أما الجهة اليسرى فإنها آمنة، كانت النسوة يضعن أطفالهن إلى يسارهن، الرجال يمشون إلى يمين نسائهن، بعضهن لا يقبلن، يصررن على السير إلى يمين الرجال ممسكات بأذرعهم، والحقائب في أيديهن اليمنى. علينا أن نُسرع قدر الإمكان، وفي الوقت ذاته يجب أن لا تُصدر أرجلنا أو حتى

أنفاسنا أيّ صوت، بكى أحد الأطفال من التعب، سدّت أمّه فمه مختنقة بدموعها، الظلام أطبق علينا، مرت الدقائق كأنها قرون، لا أتذكر تماماً ما حدث، سوى أنني كنت أرى أشباحاً تتمايل بين الموت والحياة.

قطعنا مركز المراقبة، أصبح بإمكاننا أن نتنفس دون خوف، لكننا ما زلنا معرّضين للخطر. قال الكشّاف مشيراً بيده إلى الأمام: «هذه آخر نقطة أستطيع الوصول إليها، عليكم أن تمشوا ربع ساعة بشكل مستقيم، وهناك سترون الدرَك الأردني»، ثم عاد مسرعاً في الجهة المعاكسة.

الطريق بين الصخور شديدة الضيق، وصلنا إلى تلة ترابية، شاهدت الأشباح تصعد أعلاها، أصوات وحركة أرجل فوق التلة، حين اقتربت شاهدت يداً تمتد نحوي، أمسكت بها، ساعدتني على الصعود، تجاوزت الشريط الأسود الفاصل بين سورية والأردن، كنا نلهث منهكين، قدّموا لنا قناني الماء، ارتمينا على الأرض، أمامي غرفة صغيرة مُضاءة، يعلوها العلم الأردني، التفتُّ ورائي، كانت آخر نظرة ألقيها على سورية، أضواء بعيدة، كأنها أحجار نرد على جسد البلاد، والأمم تلعب بها، كان الدرك المسلحون ينقّلون عيونهم بيننا وبين مركز المراقبة السوري، فتّشونا، صادروا بطاقاتنا السورية، قال أحدهم: «أهلا وسهلا، إنتو صرتو لاجئين عنا!». رنّت كلمة (لاجئين) في أذني، وحقيبة صغيرة تحوي بعض الملابس في يدي، والأضواء البعيدة المعجونة بالظلام في عيوني، تماوجت الأضواء، وتساقطت دموعي ممتزجة بالشريط الحدودي.

هكذا انتهى آخر مشهد بتاريخ 21 آذار 2012، بقيت بعد ذلك يومين في مخيّم «الرمثا»، وفي اليوم الثالث غادرت عمّان إلى باريس. أنا الآن سكران تماماً، عليّ أن أخرج من البار، وأتوه في الشوارع، خارج الزمان والمكان، في المنفى، وفي لعنة الذاكرة.

جنون الحرية

كلمة (تونس) تتردد بين ألسنة الجيران والأهل، شاب أحرق نفسه احتجاجاً على الاضطهاد، الناس في الشوارع، خرجتُ من غرفتي، أخي يتحدث بصوت وحماسٍ عاليين، وصوت التلفاز يأتي من عدة جهات، كنت أحضّر لامتحانات السنة الجامعية الأخيرة، رميت محاضراتي، وأسرعت إلى الصحف، (طائرة بن علي في الأجواء وجميع الخيارات مفتوحة!)، ثمة صاعقة كانت مخبأة ولم تكن بحاجة إلا إلى تلك الشرارة لتنفجر، وتتالت الأنباء، قضينا أيامنا متسمّرين أمام الشاشات، ما حدث في مصر كان أكثر ما هزّنا، ثم في ليبيا، هل يُعقل أن يرحل ثلاثة زعماء كنا نتخيّلهم أبديّين بهذه السرعة؟ هل نحن في منام؟ نسينا أعمالنا ودراستنا ولم يعد في بالنا سوى: متى ستصل الثورة إلى سورية؟ طلبة جامعات وصحفيون وتجار وعمال، بعضهم كان رافضاً للأمر، وآخرون يترقبونه كمولود جديد.

عيون الأغلبية كانت تتطلع نحو دمشق، أعلنت عدة صفحات سورية معارضة عن موعد انطلاق المظاهرات في «يوم الغضب» 5 شباط 2011، الذي كانت غايته الأولى المطالبة بإخراج المعتقلين السياسيين، لكن لم

ينجح الأمر، ثم خرجت عدة مظاهرات في دمشق من أجل مصر وليبيا، هكذا بقي أمامنا يومان محتملان: 15 آذار، و17 نيسان.

الآن في مظاهرات «ساحة الجمهورية» بباريس، إثر أحداث «شارلي إيبدو»، بين الجموع التي تجاوزت مراحل الديكتاتورية، أرى أن هذه اللحظة ذاتها مرت في زمن آخر، زمن الثورة الجميل، فالإسلام السياسي والديكتاتورية متماثلان، كما أن الشعوب المطالبة بالحرية متماثلة أيضاً. لم أحقق أي نتيجة في امتحانات الجامعة، فقد كانت المظاهرات مغناطيساً لحواسي وإدراكي، جهّزت خط إنترنت سريعاً وبدأت أتواصل مع مجموعة من الأصدقاء المؤيدين للثورات العربية، وأكثرهم لم يكن له أي نشاط سياسي سابق.

13 آذار/ مارس 2011

الحلاق يتحدث عن غلاء الأسعار، بينما أنظر إليه كمن يقول: لا تعلم ماذا سيحدث، سينقلب كل شيء. فعلاً كنت ومجموعة من الذين أتواصل معهم نظن أننا سنغيّر الكون، طاقة خرافية استحوذت علينا، شمس الظهيرة خفيفة تمتد على شوارع الخالدية، وصلت إلى البيت حيث سمعت كلمة «نعيماً» لآخر مرة من أمي، أخبرتها بأنني سأسافر غداً إلى دمشق، وأن ثمة مظاهرة ستنطلق بعد غد. لا أنسى الهلع الذي غطى وجهها المصفَرّ وعيونها الزائغة: «ماما نحنا شفنا هالنظام بالتمانينات وما في شي تغيّر، كنا طلاب متلكن وقتلوا نص شباب البلد، بلا ما تكون ضحية!»، قلت لها: «إنتو جيل رضي يعيش بالذل، نحنا ما رح نرضى، ولا تخافي النظام ما رح يئذينا كتير، الوقت تغيّر، وهلأ في إعلام وثورات عربية». كنت أحمق.

هل حقاً سأصرخ: «حرية» في دمشق؟! إذا متُّ بعد ذلك سأكون مقتنعاً بأنني قد عشت ما يكفي لأقولها. العاشق أعمى في الطريق إلى المعشوق، هكذا أصابنا العمى، ثمة زاوية سوداء لم أرَها، أو لم أكن أريد أن أراها، ماذا سيحدث بعد ذلك؟ ماذا لو فشل كل شيء؟ ماذا لو قُتلنا؟ لم يخطر على بالي ذلك، وكأنني كنت مخدراً، لا بحبوب الهلوسة التي أرسلتها قناة «الجزيرة» حسب ادعاء النظام، بل بحبوب الحرية.

كانت عدة جهات قد دعت إلى هذه المظاهرة، صفحات على «الفيس بوك» ومواقع معارضة ذات توجهات مختلفة، بعضها ينتمي إلى «ربيع دمشق»، وبعضها أُنشئ حديثاً، أمام تمثال صلاح الدين الأيوبي بجانب سوق الحميدية، الساعة الثانية عشرة، والمطالب واضحة: إلغاء قانون الطوارئ، إطلاق سراح المعتقلين السياسيين، محاربة الفساد، إلغاء المادة الثامنة من الدستور التي تنص على أن حزب البعث هو الحزب الحاكم.

توجهت إلى كلية الآداب لألتقي مجموعة من الذين أثق بهم، أحدهم أكّد أنه سيأتي مع رفاق آخرين، وآخر قال إنه سيمر بالتاكسي، فإن وجد عدداً جيداً من الناس نزل، وإن لم يجد أكمل عبوره.. وثالث نهرني وحذرني قائلاً: هذا انتحار!

ثمة فتاة لا أعرفها بين الحضور، أخبرني الأصدقاء بأنها موثوقة، كانت تغني كلما صمتنا غير مبالية بنا: «طلعنا على الضو، طلعنا على الريح، طلعنا على الشمس، طلعنا عالحرية»، دعوتها إلى كأس فوافقت، في بار «ميشيل» بسوق «مدحت باشا» بدأت تغني بصوت عالٍ، جميع من في البار يصغون ويرددون الأغنيات. كنت غائباً بين مشاعر متناقضة، وفجأة قلت لها مازحاً: «غداً قد لا نكون هنا، لذلك دعينا نتزوج اليوم!»،

ضحكت وأبدت موافقتها، ذهبنا إلى إحدى الكنائس القريبة، أشعلنا شمعة وأخبرنا الأب: «هذه الشمعة من أجل زواجنا!»، فأجاب: «الرب يباركن!».

مشينا دون أن نعرف إلى أين، مساء دمشق يقترب، وأنا أمسك كفّها ممثّلاً دور الزوج السعيد، أما هي فقد كانت تغني فقط، ثم افترقنا لألتقي بالكاتب «محمد ديبو»، حدّثته عن المظاهرة فأخبرني بأن المخابرات قد يجرفوننا خلال خمس دقائق، ومع ذلك سنتظاهر.

الساعة الثالثة صباحاً، في منزل أحد الأصدقاء بمخيّم «اليرموك»، ما إن غفوت حتى رأيت كرسياً ألمانياً في زنزانة، صحوت فزعاً، وبين النائم والمستيقظ بقيتُ أرى أسلاك كهرباء توصَل بأعضائي، مع شتى وسائل التعذيب التي كنا نقرأ ونسمع عن ممارستها في سجون النظام.

كنت قد راسلت بالتنسيق مع أحد الصحفيين في حمص «عمر إدلبي» منظمات تهتم بحقوق الإنسان وأعلمناهم بالأمر، كما أخبرْنا الأصدقاء السوريين في الخارج، ومنهم الطبيب «أيهم حداد»، كي يكونوا جاهزين للنشر ووصْلِنا بوسائل الإعلام، فبالتأكيد لن نستطيع أن نصوّر أو ننشر الخبر بسهولة، وقد نرسل إليهم المعلومات فقط.

اتفقت مع «عمر إدلبي» على أن نلتقي أولاً في الحديقة المحاذية لـ «جسر الثورة»، ثم نتوجه إلى تمثال «صلاح الدين الأيوبي» الذي يبعد خمس دقائق مشياً. أمام التمثال، لا شيء يشير إلى أن مظاهرة ستبدأ سوى باصات الأمن المصفوفة بينه وسوق الحميدية.

نراقب المكان عسى أن نرى أحداً نعرفه، لكن دون جدوى، مرت نصف ساعة، وفجأة نُشر خبر على «الفيس بوك»: هناك مظاهرة في ساحة الأمويين! انطلقنا إليها، الساحة خالية من غير الجنود الواقفين أمام مكتبة الأسد ومبنى الإذاعة والتلفزيون. كان الخبر كاذباً، سرنا

يائسين ونحن نلعن الفوضى وسوء التنظيم، هذه الفوضى بقيت مستمرة في معظم أحداث الثورة، فنحن منذ طفولتنا لم نعرف سوى المنظمات البعثية، من «طلائع البعث» إلى «شبيبة الثورة» حتى «اتحاد الطلبة»، إذاً كيف لنا أن نجيد العمل الجماعي!

اعتقال

الضوء المنعكس على سيارة الأجرة يحجب قليلاً من الرؤية، لكن يبدو واضحاً في الشمس الساطعة فوق القلعة أن حضارات مرت من هنا، نظرتُ ساهماً بالاتجاه الأيمن، خلال عودتنا من ساحة الأمويين إلى سوق الحميدية، ثمة طفل يبيع العلكة قرب «محطة الحجاز»، غاب سريعاً، وحين التفتُّ إلى الأمام شاهدت حشوداً من البشر، نزلنا من السيارة راكضين باتجاهها، وبين تدافع الناس وصلنا إلى ساحة «الحريقة»، هناك كانت مجموعة من الشبان تهتف: «الله، سورية، بشار وبس!».

لقد خرجت المظاهرة من الجامع الأموي ولم تستمر سوى عشر دقائق، إذ انقضّت عليها قوات الشرطة وحفظ النظام، كانوا مسلّحين ويرتدون الملابس العسكرية أو المدنية، أعدادهم بين سوق الحميدية والقلعة تكفي لاعتقال نصف سكان دمشق.

في إحدى زوايا «الحريقة» توقف باص للأمن وبدأ العناصر بإخراج ثلاثة شبان مقيّدين من محل للألبسة، علمنا في ما بعد أنهم قد اعتقلوهم مؤقتاً في ذلك المحل، كما علمنا أن أغلب أفراد المجموعة المتظاهرة كانوا من الأكراد، وتحديداً من حي «ركن الدين»، ولم يتجاوزوا العشرين شخصاً.

العناصر يحملون المعتقلين الثلاثة إلى الباص كما تُحمل أكياس البطاطا، والتجار يتجمعون في الساحة للمشاهدة، فيتم تفريقهم دون

عنف، الصيحات تتعالى، والأنظار تتجه إلى إحدى الشرفات، فقد ضبطت المخابرات شاباً يصوّر، بعد دقيقة رأيته يُجَرّ من باب البناء وقد أمسك اثنان من العناصر بيديه وعنقِه.

جلست مع عمر على أحد مقاعد ساحة الحريقة، ثم شغّلت كاميرا جوالي وبدأت أصوّر متظاهراً بأنني أحاول الاتصال بأحد ما، عندئذ اتصل بي «محمد ديبو».

ـ بتعرف شي محل أحذية اسمه «الكواكب» قريب من هون؟

كنت في الطريق إلى لقاء محمد خارج السوق حين شاهدت عنصر الأمن يتابعني بعيونه، فطرحت عليه السؤال السابق متظاهراً بأنني سائح لبناني ضائع، ضحك العنصر السمج هازئاً مني وحرّك رأسه بالنفي.

مشينا أنا ومحمد بحثاً عن مظاهرة ثانية بعد أن سردت له ما حدث، وعندما لم نجد سوى المخابرات توجهنا إلى مقهى «الكمال» في «الصالحية» لنبتعد عن الأنظار. كانت باصات الأمن قد وصلت حتى شارع الثورة.

لحق بنا عمر إلى المقهى، وهناك اتصلت بقناة الـ«بي بي سي»، ونقلت لهم الحدث: «اعتقال ستة شبان في دمشق، إثر مظاهرة خرجت من الجامع الأموي باتجاه الحريقة».

كنت قد رأيت أربعة منهم، لكن بعد مغادرتي شاهد عمر اثنين آخَرين اعتُقلا وهما يصوّران من إحدى الشرفات.

ثمة احتمال ضعيف في أن تخرج مظاهرة أخرى عصراً من الجامع الأموي، لهذا ودّعنا محمد ديبو عند باب المقهى، موصياً إيانا بإخباره في حال حدوث شيء يشير إلى ذلك.

راحة درعاوية

منهكين جلسنا في باحة الجامع ننتظر انتهاء الصلاة، أمامنا علبة راحة اشتريتها من رجل خمسيني، حيث الحمام الشجاع ينقّب عن رزقه بين الجامع وسيارة أمنية سوداء، والرجل يقف وراء بسطة صغيرة وينادي: «راحة درعاوية»، غادر المصلون دون أن يحدث شيء، كان عمر غاضباً من سوء التنظيم وتضارب الأنباء، وفي أثناء حديثه المنفعل مددت إليه يدي: «كول راحة أحسن شي!».

عاد عمر إلى حمص، أما محمد ديبو فقد اعتقلته «المخابرات الجوية» بتاريخ 19-3-2011، وأخبرني بعد خروجه أن الأمن كان يراقب كل تحركاتنا، فقد استنتج ذلك من خلال جلسات التحقيق معه.

بقيت أتجول حول الجامع حتى المساء، ثم توجهت إلى كراجات العباسيين مصطحباً ما تبقى من الراحة الدرعاوية.. هكذا بدأ الحلم الذي تحوّل إلى كابوس، والآن بعد أربع سنوات، بعد كل هذا الدمار والإحباط، لا أعرف ما إن كنت مخطئاً أم مصيباً، حقيقياً أو متوهماً، لكنني أعرف فقط أن ثمة جنوناً أصابنا، كان اسمه الحرية، وما زال اسمه: الحرية.

الحلم والمجزرة

1

في طفولتنا، لم تكن ذكرى الجلاء تعني لنا أكثر من يوم عطلة سعيد تعكّره الأهازيج والخطابات، هذه العبارة «جلاء آخر جندي مستعمر عن أرضنا عام 1946» يحفظها السوري كما يحفظ صورة الأب القائد الرفيق «حافظ الأسد»، اليوم في ذكرى الجلاء عام 2015، لاجئاً في فرنسا أتذكّر المجازر التي ارتكبها النظام قبل أربعة أعوام، لقد تم إجلاؤنا نحن أيضاً، وأصبحنا بشراً يتمتعون بحقوق الإقامة والتأمين الصحي على أرض المستعمر الفرنسي الغاشم.

كان الباص قد توقف في أول شارع «الدبلان» قادماً من «الوعر»، اعتذر السائق عن إكمال الطريق، فالشوارع العامة مغلقة أمام وسائل النقل، علينا أن نترجّل ونمشي حتى حيّ «الخالدية».

سبق أن حاولت إقناع أمي بعدم المجيء، لكنها أصرّت، حمص تشهد غلياناً شعبياً بعد تشييع ضحايا يوم أمس، 17 نيسان 2011، عيد الجلاء، إذ قتل النظام سبعة مدنيين أثناء مظاهرة كبيرة في حي «باب السباع»، تلك المظاهرة خرجت غضباً من مجزرة أخرى ارتكبها النظام، حين

أطلق النار على المتظاهرين بمدينة «تلبيسة» شمال حمص في يوم 16 نيسان.

وصلنا إلى منتصف شارع «أبو العوف» المحاذي لساحة الساعة، أو ساحة «كرجية حداد» نسبة إلى المغتربة السورية كرجية حداد التي زارت حمص عام 1958 وتبرّعت بتكاليف إنشاء ساعة في ساحتها المركزية. كل ما أرجوه أن تختفي أمي من هنا، فعناصر الأمن يصطفون على الجانبين، ثمة شارع فرعي يظهر منه المعتصمون، كانوا بحدود الألفين، الساعة الخامسة مساءً، لم أنتبه إلى أنني أتنفس حتى وصلنا إلى منطقة الأمان، الخالية من الأمن، مقابل جامع خالد بن الوليد، حيث تجمع عشرات الشبان. المؤذّن ينادي بأن الاعتصام في ساحة الساعة فقط، ويطلب منهم التوجه إلى هناك.

شوارع الخالدية شبه فارغة، المحلات مغلقة، خمسة رجال يشربون الشاي على رصيف أمام منزلنا، بقوا لحراسة الحَي، قال أحدهم إن المشيّعين خرجوا من مقبرة «تل النصر»، لكنهم لم يتفرقوا، بل توجهوا إلى الساحة، «الاعتصام لن ينتهي حتى يبرد الدم، ولن يكون ذلك إلا بمحاكمة القتلة»، قال أحدهم. «حمص كلها صارت بالساحة» قال آخر. وصل أحد أقاربي، دخلنا إلى البيت وحضّرنا عدداً من عبوات الماء وبعض المأكولات الخفيفة، في باحة الدار، يدا أمي ترتجفان وهي تساعدنا في ربط الأشياء إلى الدراجة، كانت مرتدية ثوب صلاتها، وقد انتهت تواً من سقاية سطول الورد.

تجاوزنا رائحة الورد في ممر البناء، كل منا يمسك الدراجة من طرف، ثمة هدوء مخيف يلف الحي عقب أذان المغرب، ونحن نعبر الحديقة أمام جامع خالد، كانت مجموعات من المصلين تعود باتجاه الخالدية، الجميع يسلّم على الجميع، كنا نبحث عن طريق آمن للوصول

إلى الاعتصام. قريبي موظف في الحكومة، وفي حال تصويره من قبل الأمن سيُفصل من وظيفته، هذا ما أخبرني به حين دخلنا شارع «ابن زيدون» المجاور لـ «مديرية الآثار والمتاحف»، فوجئنا به مليئاً بباصات الأمن، لكن لم يعد بإمكاننا التراجع، فأكملنا سيرنا وقد تركَنا العناصر نمرّ بسلام.

كان الناس قد غطوا المساحة الممتدة بين منتصف شارع «شكري القوتلي»، وبناء «السرايا»، وصولاً إلى شارع «سامي الدروبي»، في مقدمتهم حاجز بشري من النشطاء، يفتشون الداخلين للتأكد من أنهم لا يحملون أية قطعة سلاح، اعترض أحدهم، فأجابه الناشط بأن «النظام ما لو أمان».

خلال دقائق انتهت قناني الماء، ثمة عائلات تفترش العشب في حديقة «الدبابير» بين الساحة وسينما «الأمير»، النشطاء يتناوبون على حمل الأعلام واللافتات، كان «محمود الدالاتي» أحد شيوخ حمص يتحدث عبر الميكروفون، «إخوانكم من السَّلَمية والحَولة بكرا الصبح رح يجوا عالاعتصام»، ضجّ الحشد بالفرح، «حرية حرية.. إسلام ومسيحية».تساءل قريبي عن وجود الشيوعيين. وقتذاك، كانت اتهامات النظام للثوار بأنهم إسلاميون ومسلّحون تجعلهم يبالغون بإظهار سلميتهم وتعدديتهم، أخذ أحدهم الميكرفون ورحب بوجود مجموعة من العلويين القادمين من حي «الزهراء»، كانوا ملثمين، علمتُ في ما بعد أن معظمهم من تجمُّع «نبض للشباب المدني السوري»، لم يكن شعار «الشعب يريد إسقاط النظام» شائعاً في حمص، لكن الشيخ أعلنه بعد أن ترحّم على شهداء البارحة، الأضواء تملأ الساحة، وأصداء ترديد الشعار تهزّ السماء، بدا المعتصمون كأنهم خالدون في مهرجان.

مرَّ الوقت سريعاً، ثمة فوضى في الهتافات والخطابات، لكن الجميع

كانوا يتشاركون كل شيء، من الأحاديث حتى أرغفة الخبز، وبين الحين والآخر يلتفتون باتجاه الساعة القديمة، حيث تتمركز قوات الأمن أمام مبنى «الهجرة والجوازات».

كنت أتابع عبر جوالي ردود الفعل في «الفيس بوك»، وفجأة انقطعت الاتصالات، ساد شكٌّ في أن الأمن ينوي اقتحام الاعتصام. غادر قريبي، وسرَت أقاويل بأن النظام أعطى مهلة حتى الصباح لكي يتفرق الناس، آخرون أكّدوا أنه لن يجرؤ على قتل أحد، فالمعتصمون يتجاوزون المئة ألف.

وصلتْ أربع سيارات «كميون» ممتلئة بالشبان، عرفتُ من هتافاتهم أنهم جاؤوا من حي «باب السباع». خرجتُ من الاعتصام عائداً إلى المنزل لأرتاح، من أمام «السوق المسقوف»، شاهدتُ بجوار مبنى «الهجرة والجوازات» رشاش 500 مثبتاً إلى أكياس من الرمل وموجهاً نحو المعتصمين، وحوالي عشر باصات أمن قادمة من جهة «دوار المطاحن»، نظرت إلى جوالي فوجدت أن الاتصالات قد عادت.

شيئاً فشيئاً تقلّ الأضواء، منتصف الليل، في «الخالدية»، العائلات تخترق الظلام متوجهة إلى الاعتصام، والنساء يحملن أغطية وفرشاً وأطفالاً رُضّعاً. الرجال ما زالوا على الرصيف أمام منزلنا، تركتهم ودخلت إلى المنزل، كانت ركبتاي تؤلماني من طول الوقوف، اتصلَ بي الكاتب «علي سفر» من دمشق وسألني عن حقيقة قطع الاتصالات في الساحة، فأكّدتُ له ذلك.

كانت أمي وإخوتي ينوون الذهاب صباح الغد، وقد ملأ الحماس أحاديثنا، صعدتُ إلى غرفتي لأرتاح، بدّلت ملابسي، استلقيت، وضعت نظارتي قرب الوسادة، تأملت السقف، صورة الحشود لا تغادر رأسي، وفي تمام الساعة الثانية إلا ربعاً، حين أغمضتُ عينَي، بدأت المجزرة.

2

قال أحد الجيران، وقد كان جندياً في «حرب تشرين» 1973، إنه لم يسمع رصاصاً بهذه القوة والكثافة من قبل، ماذا سنفعل؟ الساعة الثالثة صباحاً، مئة ألف من العزّل في الساحة، كل هذا الرصاص يُطلق عليهم؟ أخي الأصغر ينظر هلِعاً من الشبّاك، وبعض الرجال متسمّرون أمام منازلهم، إذا أخرج أحدنا رأسه من الحارة باتجاه «طريق حماة» قد يُصاب، وصل شابٌّ من جهة الجامع، «الناس ماتت، الناس اندبحت، فزعة يا شباب!»، ومضى. حاول أحدهم التقدّم، لحق به أخوه ومنعه، حاولت الشيء ذاته فمنعني أخي.

اتصلتُ بـ«علي سفر»، أخبرته بأن مجزرة كبيرة تحدث في الاعتصام، أريد تصريحاً عبر إحدى الفضائيات، كان صوت الرصاص يقترب، حتى أننا بدأنا نشم رائحة البارود، بعد خمس دقائق اتصلَت بي قناة الـ «بي بي سي»، جلبَت أمي قطعة قماش لأضعها على فمي، خوفاً من أن يتعرف الأمن على صوتي، مسحتُ بها العرق عن جبينها، وأعدتها إليها. سألني المذيع عما يحدث، رفعت جوالي في الهواء، ثم أعدته إلى فمي: «هل تسمع إطلاق النار؟ مئات المدنيين يُقتلون الآن، وما من أحد يحمينا».

«لكن النظام يتحدث عن مندسّين وعصابات مسلّحة تطلق الرصاص على المتظاهرين»، قال لي، فأجبته بأن قوات الأمن تحيط بالاعتصام، فمن أين دخل المندسّون؟ ولو أن ثمة مندسّين حقاً، فالنظام هو المسؤول عن حماية المدنيين.

لم ينقطع الرصاص دقيقة واحدة، وصلتْ مجموعة من قلب الخالدية، أحدهم يحمل مسدساً ويلوّح به في الهواء، كان يبكي، «يالله عالاعتصام يا شباب!»، «نحنا ما معنا سلاح»، ردَّ أحدهم. «أنا اتصلت بالبدو،

بعشيرة العقيدات، رح يجوا ويجيبوا سلاح»، أجاب آخر، كنا كمجموعة طيور مكسرة الأجنحة تبحث عن مخرج من حفرة، وحولها قطعان ذئاب.

من مئذنة الجامع بدأنا نسمع عبارة «حيٍّ على الجهاد يا إخوان، حيٍّ على الجهاد! الله أكبر، الله أكبر، يا الله!»، خرج رجل من منزله بملابسه الداخلية، «الشيخ عم يقول حيَّ على الجهاد، شو عم تستنُّوا؟»، كان الأمن يحاصر الجامع، وفيه تختبئ مجموعة ممن استطاعوا الهروب حاملين بعض الجرحى، حسب بعض الشهود، كان في الجامع شخص غريب، صعد إلى المئذنة ونادى بهذه العبارة، وهو ما كان قد حدث في ساحة الاعتصام، حيث نادى البعض بهذه العبارة، فطردهم النشطاء، لكن الأمر بقي غامضاً.

توقف إطلاق الرصاص في الساعة الرابعة فجراً، دخلنا إلى بيوتنا، أغلقنا باب البناء بقطعة كبيرة من الحديد، وحصَّنّا الشبابيك بما لدينا من قطع خشبية وأكياس ملأناها بالثياب، كل منا يطمئِن الآخر إلى أن الأمر قد انتهى، وعيوننا ملأى بالخوف والوحشة.

الحصيلة النهائية لعدد الشهداء غير معروفة حتى الآن، ففي الساعة الخامسة فجراً، بعد أن تفرّق الناس، نُشلت جثث الضحايا بجرّافة، ثم عُبّئت في شاحنات كبيرة، بعضها نُقل إلى المشفى العسكري في حمص، وبعضها تمّ ترحيله إلى مكان مجهول، غسل عناصر الأمن الساحة من الدم بسيارات الإطفاء، هذا ما أجمعت عليه شهادات الذين رأوا ما حدث من شبابيك منازلهم القريبة، وهو ما شهد به جندي شارك في العملية، ثم انشقّ وهرب إلى لبنان، حيث أكّد أن عدد الضحايا بالمئات، وأن المخابرات الجوية والعسكرية هي التي نفّذت المجزرة بإدارة «حافظ مخلوف» ابن خال بشار الأسد.

ما حدث خلال أربع عشرة ساعة، وهي مدة الاعتصام والمجزرة،

يختصر أربع سنوات من تحوّلات الثورة، من قمة التظاهر الحضاري إلى قمة الهمجية، كما يختصر الأسباب التي أودت بسورية إلى الحرب الأهلية، وكيف نجح النظام بجعل الثورة ناراً تأكل السوريين.

في صباح اليوم التالي، شيَّع الحمامصة الشهداء الذين استطاعوا إخراجهم من الساحة، فأطلق الأمن الرصاص على المشيّعين ليصبحوا شهداء، عصراً تحوّلت حمص إلى مقبرة، السماء صفراء كوجوه الأطفال، عدتُ إلى حي «الوعر»، كان وحش الصمت محيطاً بالمدينة، وحين غفوت في الغرفة، دخلَت حشرة واصطدمت بضوء النيون، هل عادَ الرصاص؟ تساءلت وقد أفقتُ مذعوراً، ولم أزل في ذعري حتى هذه اللحظة.

عن الجدار والبخّاخ و«أدب الغرباء»

ثمة عناصر من الأمن يعملون «دهّانين»، في الساعة العاشرة ليلاً، نراهم واقفين يومياً أمام أحد جدران مدرسة «خالد بن الوليد»، أو محلات حي «الوعر»، ولن يكون الأمر شديد العناء بالنسبة إليهم، فشهر نيسان من هذا العام 2011 مناسب للنُّزه الليلية. أحياناً يكفي محوُ بعض الكلمات، وأحياناً أخرى لا بدّ من طمسها جميعاً، لكننا إذا استمررنا في المشاهدة حتى الساعة الأولى من الفجر، فسنجد أن مجموعة من الملثمين تعيد الكتابة في المكان ذاته، فطلاء الأمن يمحوه الثوار، كما أن كلام الليل يمحوه النهار.

هذه الجدران الواقعية كان لها رديف في جدران «الفيس بوك»، التي امتلأت مع بدايات الثورة بمعارك الـ«بوستات»، فالحراك بدأ من أحد جدران مدرسة في درعا خطّ عليه الأطفال عبارة «الشعب يريد إسقاط النظام»، فانتزعت المخابرات أظافرهم. أما في دمشق فقد كُتبت العبارة ذاتها على جدران حي «ركن الدين» قبل 15 آذار 2011، وانتشرت هذه الظاهرة بسرعة هائلة في المدن والأرياف السورية. هكذا تحوّل الجدار إلى وسيلة لتعليق العبارات المُطالبة بالحرية، مع أنه كثيراً ما

كان حاجزاً حيالها، فالثورة السورية في عمقها كانت على الجدران، كما أنها انطلقت من الجدران.

«أدب الغرباء»، ذلك الكتاب الصغير الذي جمع فيه «أبو بكر الأصبهاني» الأبيات الشعرية التي كان يخطّها العابرون على أبواب الجوامع والمقابر والبساتين والكنائس وجدرانها، يعرض نوعاً خاصاً من القصائد الحوارية في العصر العباسي، فالعابر كان يكتب بيتاً شعرياً، فيأتي عابر آخر ويعارضه بعبارة أو ببيت آخر، واللافت أن أكثر هذه القصائد بقي مجهول القائل، تماماً كالعبارات التي خُطّت على الجدران في سورية.

(كنتُ أيام مقامي في سوق الأهواز عاشرتُ جماعة من أهلها، فدعاني صديق لي إلى «الشاذروان» يوماً، خرجت ومعنا شراب وغناء، وفي «الشاذروان» رأيت على حجر من حجارته مكتوباً، «لم أنسَ ليلتنا بشاذروانِ/ والماءُ ينسابُ انسيابَ الجانِ»، فكتبتُ تحته: «والبدرُ يزهرُ في السماءِ كأنه/ وجهُ الذي أهوى ولا يهواني).

هذه الحادثة الوجدانية تدفعنا إلى المقارنة بينها وبين ما كان يُكتب على جدران سورية قبل الثورة من تلك العبارات السطحية على كَرَاسي وسائل النقل العامة، أو أبواب دورات المياه وجدران المدارس، وهي غالباً ما تُسبق بكلمة «ذكرى» متبوعة برسم صغير لقلب وسهم، وتحتها نقرأ كلمة بذيئة كتبها عابر آخر، تغيَّر الأمر في الثورة السورية، إذ صرنا نقرأ «يسقط بشار الأسد»، وفي اليوم التالي نرى قطعة بيضاء تسبق «بشار الأسد»، فعنصر الأمن كما يبدو لم يكن يملك طلاءً كافياً، لكن كلمة «يسقط» تعود في اليوم التالي لتجسِّد الصراع الدائر بين البربرية والحضارة، على أن الأمر لم يقتصر على الشعارات، بل امتد إلى الغرافيتي المُرفق بعبارات لمحمود درويش لا سيما في مدينة سراقب ـ إدلب: «مَن

أنا لأخيِّب ظنّ العدم؟» و«على هذه الأرض ما يستحق الحياة»، و«أجمل التاريخ كان غداً»، هذه الكتابات ليست سوى مرآة للسلوك الجمعي الذي تحوّل من سلوك ضائع وسطحي إلى مُطالب بالخلاص والحرية ومتذوّق للفن.

في فرنسا، نشط خلال القرن الماضي تيار شعريّ سُمي بـ«شعر المترو»، أسّسه كلٌّ من الشاعرَين الفرنسيين «جيرار كارتييه» و«فرانسيس كومب»، وعلى مدار خمسة عشر عاماً قام هذا التيار بكتابة العبارات الشعرية داخل المترو، ولا يزال تعليق العبارات الشعرية في «مترو باريس» نشِطاً حتى اليوم، فخلال «ربيع الشعراء»، تُكتب مقاطع لرواد الشعر الفرنسي أو للشعراء الجدد، لكنني حين أرى هذه المقاطع أشرد في ربيع آخر، أرى تلك العبارة التي خطّها بخّاخ إدلب: «قبل الثورة لم تكن جدراننا لنا، كانت لحزب البعث، اليوم حررنا الجدران وبقي علينا أن نحرر بلدنا»، وبينما يصفّر المترو بين المحطات تتناهى إلى أذنَيّ أصوات تهدّم الجدران في القصف.

السيناريست «عدنان الزراعي» كان يعيش في دمشق عندما اشتعلت المظاهرات الأولى، وبعد أشهر أنجزَ مسلسله «فوق السقف» الذي مُنع من العرض، عدنان لم يشارك في أي من الأعمال المناهضة للنظام، لكنه كان قد كتب عام 2008 لوحة في مسلسل «بقعة ضوء» الشهيرة «الرجل البخاخ»، التي تتحدث عن رجل لا يجدي كلامه مع الناس عن مشكلات البلد، فيستخدم الـ«بخّ» على الجدران ليدوّخ أجهزة الحكومة، هذا العمل الدرامي كان بمثابة الأسطورة القادمة من المستقبل وليس من الماضي، فقد تحوّل «الرجل البخاخ» إلى رمز واقعي في الثورة السورية، أما عدنان فقد اعتقله أمن الدولة عام 2012، وما زال معتقلاً حتى اللحظة.

الغرباء الذين كتبوا على الجدران في العصر العباسي هم أنفسهم

من كتبوا على جدران سورية، ومن اللافت أنه بعد اشتداد الصراع المسلح ودمار أحياء حمص القديمة ثم خروج المسلحين منها، عاد هذا الفن إلى الظهور في بعض الأحياء التي لم تزل تحت سيطرة النظام ومنها حي «الغوطة»، كما أنه استمر في المدن التي يسيطر عليها «داعش»، فهو فن المهمّشين والمظلومين والغرباء، يمارسونه في كل زمان.

خداع

قبل إحدى مظاهرات حي القيمرية في دمشق القديمة، وهي كانت بتاريخ 20 تموز/ يوليو 2011، كنا قد تجمعنا في أحد المقاهي بانتظار وصول الباقين منفقين الوقت في أحاديث عادية أو مشفّرة، فالمقهى الواقع في حي مُستعمر بالأمن يفرض قدراً كبيراً من الحذر والتخفّي.

كان التجمّع عند أحد المفارق الضيقة من الحي، ولتضييع فرصة الملاحظة على الأمن المنتشر بكثافة شديدة، تفرّقنا كل اثنين أو ثلاثة إلى مجموعة تدعي بأنها تودّ شراء شيء ما من أحد المتاجر إلى أن صرخ «الهتّيف» (أي مطلق الهتافات): «واحد واحد واحد، الشعب السوري واحد». فكان الترديد، ثم المسير الأشبه بالانتحار، لأن عدد المتظاهرين لم يتجاوز الثلاثين في منطقة تعجّ بقوات حفظ النظام والمخابرات.

لم تمض عشر دقائق حتى توقف المتظاهرون عند إحدى الزوايا، ومع ازدياد الحماسة هتف أحدهم بعبارة لم تكن شائعة في حينه، بل غير متفق عليها حتى بين المتظاهرين: «الشعب يريد إسقاط النظام». كانت هذه العبارة السبب في هجوم كتلة من الأمن و«الشبّيحة» مع العصي والسكاكين، مما دفع بالمجموعة المتظاهرة إلى سباق الريح، كلٌّ إلى

حيث تفضي به قدماه. انتهى الأمر بي مع خمسة آخرين، بينهم الشاعران محمد ديبو ووائل سعد الدين، والكاتب باسليوس زينو، إلى باب منزل قديم في نهاية إحدى الحارات. كنا نحاول كبت لهاثنا كي لا يشعر بنا أصحاب البيت، وقد أوشكت إحدى الفتيات أن تغيب عن الوعي من شدة الخوف والإعياء، فرششنا وجهها بالماء، ثم اتفقنا على الخروج اثنين اثنين بعد أن استطلعنا هدوء الشارع المحاذي.

كان دوري في الخروج مع تلك الفتاة، وفي محاولة لدفع الريبة عنا قلتُ لها: أنا خطيبك الآن، وأنت تشاجرت مع أمي، تشكينها لي وأنا أهدّئ الموقف. خرجنا ونحن نصرخ حاجبين ضحكنا من كوننا مثّلنا المشهد فعلاً، بدأت هي تذمّ أمي وأنا أردّ عنها التهم، إلى أن أصبحنا بمحاذاة الجامع الأموي، فذهب كلٌ منا في سبيله.

إذا كانت الحاجة أم الاختراع، فإن جهاز المخابرات الأسدي أبوه وجده، لقد علّمنا أن نخترع أساليب قد لا تخطر على بال الشياطين للهروب من قبضته.

بعد خروجي من سورية ووصولي إلى باريس تساءل أحد الأصدقاء عن كيفية تهريب الحشيش من هولندا ـ التي يُباع فيها الحشيش قانونياً ـ إلى فرنسا، على الرغم من كل الاحتياطات الأمنية التي قد تنتشر في أية لحظة مع الكلاب المدربة عبر الحدود، أجبته بأنهم يستطيعون تهريبها عن طريق السيارات الكشّافة التي تنطلق قبلهم بخمسة كيلومترات وتنبّههم عند حدوث أي خطر، وإن وقعوا بين أيدي الشرطة يدّعون بأن شخصاً أغمىَ عليه في الطريق وهم مستعجلون لنقله إلى المستشفى. أعجب صديقي بالفكرة واقترح عليّ مازحاً أن أعمل في التهريب، إن لم أكن قد عملت فيه فعلاً، فتركته عند حسن ظنه ـ أو سوئه ـ بأنني كنت مهرّباً، لكن من نوع آخر، فالحشيش الممنوع في فرنسا، تقابله أدوية

وكاميرات ولافتات ليست ممنوعةً فقط، بل قد تقضي على حاملها في سورية، وإنّ ممنوعات قومٍ عند قومٍ عجائب!

كان لكل ناشط في الثورة جهاز جوّال ليس باسمه، بل مسجّل إما باسم شهيد أو باسم شخص غادر البلاد، الاتصال في الأحياء غير الآمنة يتم بعيداً عن المنزل بعشرين متراً، وتدوم المكالمة أقل من دقيقة، أما لغة التشفير، ولا سيما في بداية الثورة، فهي أقرب إلى لغة الأطفال الذين يحاولون أن يخبئوا قطع الحلوى عن الكبار.

قبل 15 آذار، لم يكن الحديث عبر «تشات الفيسبوك» إلا عن الطقس والمطر والرحلة إلى دمشق، للدلالة على أول مظاهرة، ثم تتالت حفلات الشواء والسهرات والموالد وأعياد الميلاد ومجالس العزاء، وكأن مخابرات النظام التي تراقب كل شيء لن تعرف أن هناك تظاهرة على أهبة الانطلاق! هذا في مجال التكنولوجيا، أما عند المرور بسيارة على الحواجز، فلا بدّ من تشغيل «أغنية الحاجز»، وهي من الأغاني الهابطة التي تروق للشبّيحة، وتجعلهم يحيّوننا مبتسمين، خصوصاً إذا وضعنا زجاجة من العَرَق بالقرب من السائق لنثبت لهم أننا لسنا إسلاميين، بالطبع تغيّرت هذه الوسائل مع نصب الحواجز الإسلامية، فأصبح القرآن واللحية والسواك هي بطاقات المرور الجديدة.

بعد أشهر من مظاهرة «القيمرية»، أضافتني تلك الفتاة التي لم أعرف اسمها إلى صفحتها على «الفيسبوك»، ولأنها لم تجد أية وسيلة آمنة تذكّرني من خلالها بنفسها، فقد اكتفت بشتم حماتها!

أمي أصبحت خطّاطة

1

كيف سيدخلون إلى «الخالدية»؟ فتيات لا يرتدين الحجاب، وشبان أغراب، سيأتون جماعة واحدة. لعشرات السنين، بقي دخول أحد ليس من الحي يلفت الأنظار، فمنذ بداية الثمانينيات، بعد النزاع المسلح بين النظام والإخوان المسلمين، اعتُقل وقُتل كثير من شباب حمص، ليس لانتسابهم إلى الجماعة، بل بسبب تقرير كتبه أحد المخبرين عنهم، وربما بسبب كلمة نطق بها ضد النظام، هكذا تحوّلت «حمص القديمة»، ومنها «الخالدية»، بنظر النظام إلى بؤر إرهابية، ما شكّل ردة فعل لدى سكانها، فانكمشوا على أنفسهم، وفقدوا الثقة بكل مَن لا ينتمي إلى أحيائهم خوفاً من أن يكون مخبراً، خصوصاً إن كان علوياً، جميع سكان «الخالدية» من «السنّة»، كما أنه حي قديم، توارثت بيوته أجيال عدة، يسكن الأبناء مع آبائهم، ثم يرث أبناء الأبناء البيت ذاته، هكذا كل من في الحي يعرف الآخرين فيه.

في بدايات الشهر الثامن 2011، كان بعض أبناء «الخالدية» يتحدثون عن ضرورة الاشتباك مع العلويين الذين تحتضن أحياؤهم مدرعات

النظام، والذين قرروا أن يحملوا السلاح إلى جانب الجيش، ومارسوا أعمال القنص والخطف ومداهمة بيوت «السنّة»، حتى وصل التشنج الطائفي إلى أقصى حد، لذلك قرر أعضاء تجمّع «نبض للشباب المدني السوري»، الذين كان معظمهم من الأحياء العلوية، لكنهم معارضون للنظام، قرروا أن يقوموا بمظاهرة في «الخالدية»، وكانت مهمتي أن أنسق هذه المظاهرة، لكوني موضع ثقة من قبل سكان الحي، وأنتمي عائلياً إليه.

دعوت «أبو خالد» و«سليم» إلى منزلي، وهما من منظّمي المظاهرات اليومية، أبو خالد كان يمثّل التيار المتشدد، الذي يدعو إلى قتال العلويين، أما سليم فكان من التيار المعتدل، وهو ما اتصف به حي «الخالدية» منذ بداية الثورة، فالشباب الجامعيون كانوا يدعون إلى الوحدة الوطنية ونبذ «علونة» النظام، في حين كان التيار المتشدد مؤمناً بأن الإرث الطائفي مع العلويين لن يزول، فهم ـ كما يقولون ـ ليسوا أبناء حمص، بل جاؤوا من القرى، اشتروا أراضي على أطراف المدينة وأنشؤوا فيها أحياءً جديدة في عهد حافظ الأسد، وقد دعمهم الأخير بالمال وبمواد البناء التي كان معظمها يُهرّب من لبنان، حين كان الجيش السوري هناك، هكذا أصبحت هذه الأحياء امتداداً لحمص، وهي تلقى كل الخدمات من الحكومة، على حساب الأحياء السنّية الفقيرة.

تردد «أبو خالد» في القبول:

«شو بيضمنلنا إنن ما يكونوا مخبرين؟».

ـ «أنا بضمنهن!».

ـ «شأد عددن؟».

ـ «15».

ـ «طيّب، نحنا منأمّنلهن الحماية».

ـ «بس عندي طلب، ممكن ما نستخدم كلمات دينية بالمظاهرة، متل كلمة «تكبير»؟».

ـ «مو مشكلة!».

ـ «والشعارات رح تكون لسورية وإسقاط النظام والوحدة الوطنية».

كان أبو خالد مستبشراً في أن تمتد رقعة المظاهرات إلى الأحياء الموالية، فإشراك العلويين في الثورة سيعجّل بإسقاط النظام ويوفّر كثيراً من الدماء، كما سيدفع باتجاه التعايش بين السوريين في المستقبل، أبو خالد نفسه كان يقف قبل أسبوع بين رفاقه، يشتم العلويين ويؤكد ضرورة إبادتهم، بعد أن خطف أحدهم فتاة «سنّية» في حي «الإنشاءات».

2

«لينا» إحدى فتيات التجمّع، تقيم في حي «الوعر»، وهي غير محجّبة، هذا سيثير تساؤلات جنود الحواجز المنتشرة على «طريق حماة»، فجميع فتيات حمص القديمة يرتدين الحجاب، لكن أمي أوجدت الحل، ستوصلها بنفسها، وتجيب الجنود بأن «لينا» مريضة لديها، وأنهما ذاهبتان إلى عيادتها في «الخالدية».

في البيت، كنا بانتظار الخطّاط الذي سيكتب العبارات على اللافتات، وكانت أمي قد اشترت مجموعة من اللوحات البيضاء وأقلام التخطيط، أما العبارات التي أردنا خطّها فلم نكن قد جهّزنا منها شيئاً بعد. موعد المظاهرة يقترب، وشدة الحر في هذا اليوم 2011/8/14، الموافق لشهر رمضان، جعلتنا نشكّ بأن الناس سيشتركون في هذه المظاهرة، خصوصاً أنها ستكون عصراً، على خلاف المظاهرات اليومية التي تُنظَّم بعد الإفطار. أخيراً وصل الخطّاط برفقة «أبوخالد» و«سليم»، تحلّقنا

حول طاولة في باحة الدار، لم نكن أنا ولينا صائمَين، كنت أتشهّى أن أدخن، لكن التدخين مستهجَن جداً في نهار رمضان بحمص، «أبو خالد» الصائم اكتشف رغبتي، قدّم لي سيجارة، وأشعلها لي، استمر الجميع في عملهم وكأن شيئاً لم يكن، قدّمت أمي الماء للينا.

كان بيت أهلي قد تحوّل إلى ورشة عمل، كل من الموجودين يقترح عبارة خزّنها في ذاكرته لتُرفع في المظاهرة، «ثر على هذا النظام واعصف ببانيه وقوّض من حوله الأسوارا»، «الأرض لكم فقدّسوا الحرية حتى لا يحكمكم طغاة الأرض»... الخطّاط يكتب بسرعة وحرفية على اللوحة، ثم يتولى أحدنا تنشيفها بالقرب من المروحة العتيقة في المنزل، فجأة أمسكت أمي بإحدى اللوحات البيضاء وتنحّت جانباً وبدأت بكتابة عبارة: «لا للتعسف والديكتاتورية، نعم للديمقراطية والمواطنة الحقّة».

كانت تخطّ العبارة بتمعّن بالغ، كأنها لم تكتب من قبل، ناسية كل ما حولها، ترسم الحرف ببطء شديد، تتأمّله لثوان، ثم تنتقل إلى الحرف الذي يليه، وحين انتهت عرضت اللوحة علينا بخجل مخافة ألا تعجبنا.

كتب الخطاط: «نحن نريد دولة مؤسسات لا دولة أمن»، فردّت أمي في لوحة أخرى: «يا داميَ العينين والكفّين إن الليلَ زائل». في طفولتها كان حلمها أن تصبح رسامة، لكنها هجرت الرسم بعد أن دخلت كلية طب الأسنان، ولم يكن من اللائق أن تدرس الفنون الجميلة وهي فتاة من عائلة ملتزمة دينياً، ذكَرت لنا الألوان التي عشقتها، دفاتر الرسم التي كانت تبعثرها على سريرها، وتملؤها بأنواع الخط العربي، ورسومات مدن وحدائق وبيوت تتخيّل أنها ستسكنها، «تخيّلت كتير أشياء وأنا صغيرة، بس ما تخيّلت إني رح خطّط لوحات».

كنت شديد التوتر، وهو ما يحدث غالباً قبل المظاهرات، لكن هذه المرة يبدو الأمر مختلفاً، فعلى الرغم من كل الاحتياطات، كان

دخول العلويين في هذه الفترة مجازفة، وما زاد من قلقي تأخر أفراد المجموعة. كنت أشعر بأمي وأنا أنقّل رأسي مضطرباً بين اللوحات والجوّال، لم تكن قد اشتركت في مظاهرة من قبل، وها هي ذي الآن تنخرط في العمل معنا، ربما لأنها عرفت أنها لم تعش منذ زمن بعيد كما تريد، مثل أكثر السوريين، فهدف الثورة الحق أن نعيش حياتنا، أن نحقق أحلامنا الشخصية الصغيرة قبل أن نشترك بالحلم العام، لكن الحلم العام سبقنا، ولم يكن لدينا طريق آخر، فلكي تزول مخاوفنا الصغيرة وضياعنا الداخلي، يجب أن نُسقط الديكتاتور أولاً.

عليّ أن أوصل أفراد التجمّع إلى «حديقة العلُّو»، حيث ستنطلق المظاهرة في الساحة المجاورة لها، مشيت أمامهم، بعد أن استقبلتُهم خارج الحَي، كانت عيون أبناء الحي تراقبنا بحذر، لكنهم يغضّون النظر عندما يشاهدونني، تماماً كما كان يطمئن أهالي «الزهرا» حين يرونني مع أحد أبناء حيّهم، دون أن يعلموا أننا معارضون، هكذا كنا، غرباء هنا، وغرباء هناك.

فوجئت بوجود أمي في الساحة، كانت وسط مجموعة من رفيقاتها اللواتي يسكنّ البناية ذاتها، فقد تداعين للمشاركة حين رأين الفتيات الوافدات، سبع فتيات وثمانية شبان، والعدد الإجمالي حوالي خمسين شخصاً، لكن لم تمرّ ربع ساعة حتى امتلأت الساحة بالمتظاهرين الذين نزلوا من بيوتهم أو خرجوا من محلاتهم التجارية، بعد أن سمعوا هتافات مدنية جديدة، وشاهدوا فتيات غير محجبات يهتفن بإسقاط النظام! هكذا أصبح تعداد المتظاهرين أكثر من مئتين، استمرت المظاهرة ساعة، كانت الحديقة كأنها كعبة حرية، ونحن نحجّ حولها.

انتهى الوقت، لكن إحدى الفتيات أخذت المايكروفون وبدأت تهتف والناس يرددون وراءها، كنت مع شبان الخالدية نراقب الأجواء، تتملكنا

مشاعر متناقضة تتراوح بين الخوف والفرح، فاستمرار المظاهرة قد يستدعي حدوث مداهمة، لكننا في الوقت ذاته لا نريد لهذا الحجّ أن ينتهي.

أحد الرجال حلف أن يبيت الشبان والفتيات في منزله، إلا أن الأمر كان مستحيلاً، لا بسبب الوضع الأمني فحسب، بل بسبب أقاربهم وأبناء حاراتهم الموالية، فهم إن عرفوا بمجيئهم إلى الخالدية سينتهون إما مقتولين أو خلف قضبان أحد فروع الأمن.

بعد هذه المظاهرة، أصبح مجيء شباب حيَّي «الزهراء» و«عكرمة» للتظاهر في الخالدية أمراً مألوفاً، تكرّر ذلك عشرات المرات، سواء كانوا من تجمّع «نبض» أو من غيره، فقد حققت هذه المظاهرة الغرض الأبعد: ليس إسقاط النظام، وإنما اختلاط الناس ببعضهم واختبار كل منهم لطاقاته وإبداعه. هذه المظاهرة وشبيهاتها بذرة وعي وحضارة في الشعب السوري استطاع أن يحييها في أقسى الظروف، ومع أن الخالدية أصبحت الآن أطلالاً، مع أن سورية غرقت بالسلاح والحرب الأهلية، إلا أن بذرة الحرية التي نبتت ذات يوم، والتي كانت في دمائنا، ستكبر حتماً يوماً ما.

«شكلي رح أترك الطب وإشتغل خطاطة!» قالت أمي وهي تأخذ لوحاتها لتعيد النظر فيها وتتجنب الأخطاء في مرات قادمة، كانت عائدة مع رفيقاتها إلى المنزل، في الحَي الذي وُلِدت وتعلّمت وكبرت فيه، نظرت إليها وأنا أصطحب أعضاء التجمّع إلى الخارج، مع نهاية النهار، ثوبها الأخضر يتحرك في الهواء، لوحاتها في إحدى كفّيها، وعلم الثورة في الكف الأخرى، كانت تشبه طفلة خارجة من المدرسة في آخر يوم من الامتحانات.

الحرب ليست بهذا السوء

الليلة أيضاً سننزل مصطحبين قناني البيرة والسجائر، ثمة رشقات رصاص قريبة، لن نبالي بالأمر، هي من جهة «المخفر»، ونحن في طريقنا إلى الحديقة في الجهة المقابلة، الساعة الحادية عشرة من إحدى ليالي خريف 2011، لا أحد يخرج في حي «الوعر» الآن سوى القتلة والسكارى، لكن لا مشكلة، فالقتلة على الطريق العام، ونحن في الحارات الضيقة برفقة الكلاب الشاردة.

ثمة ضوء وحيد يخرج من فرن صغير، تظهر قطع العجين عبر شبابيكه العليا كآخر البقاء، ذلك الفرن يختزن حزن العالم. رشقات الرصاص تقترب، تهتز البنايات على صوت انفجار قادم من «الكلية الحربية»، نخفض رؤوسنا ونشرب، نفترض أننا سنموت الآن، أمَا يكفينا فخراً أن نكون شهداء البيرة! حقاً لا ندري ما إن كنا سنموت من الرصاص أم من الكحول، الضوء البعيد يهتزّ في عيوننا، والساحة الصغيرة في الحديقة تتسع للرقص، نبدأ بالدوران كما لو أننا في «المولوية»!

نهاراً كنت أمشي في هذا الحي، فور اجتيازي لإحدى الطرق الضيقة استدرت يساراً فوجدتُ أمامي سيارتين باللون الأسود تتوسطهما مدرعة

(بي تي إر)، كانت تمشي ببطء نملة، لم أعد أستطيع التراجع إلى الوراء والهرب، فهذا يثبت عليّ تهمة ما، كما لا أستطيع أن أتابع طريقي لأنهم قد يطلقون النار أو يتم اعتقالي، ولا أستطيع أن أقف مكاني خشية أن أثير الشكوك، كنت كمن وقع في مصيدة، الشارع فارغ، وكل خطوة، كل حركة قد تكون سبباً للموت أو للحياة، شيءٌ ما ليس نابعاً من وعيي بالتأكيد دفعني إلى أن أمشي بشكل مستقيم دون أن ألتفت، وعندما أصبحتُ بمحاذاتها لم أتمالك نفسي من النظر، لا يظهر من الشبابيك السوداء للسيارة سوى فوهات بنادق شديدة الصغر، كانت تحدّق بي كعيون حيوانات مفترسة في الظلام، عندئذ تجمد الوقت، سوف أعيش إلى الأبد إن لم يطلقوا النار.

في هذه اللحظات الأبدية مرَّ في ذاكرتي مشهد حدث قبل مدة، كان صديقي قد دعاني إلى بيته الكائن في حي «النزهة» الموالي، هل يُعقل أن يذهب شخص اسمه «عمر» إلى ذلك الحي في منتصف الليل؟! بعد أن مرت سيارة الأجرة بسلام عبر حواجز الجيش، فوجئت بأنني أضعت العنوان، تجولتُ في الحي وكانت الصور العملاقة للقائد المفدى «بشقّيه: الأب والابن» تملأ الجدران، لا يظهر من البنايات سوى تلك الصور المليئة بالأضواء. فجأة رأيت ثلاثة شبان أمامي، كأنهم قد خرجوا من باطن الأرض، سألوني عمّا أفعله هنا، اتصلت بصديقي فأعطاني اسماً لجاره المؤيد، هكذا أخبرتهم بأنني أود الذهاب إلى بيت «العقيد أبو مازن!»، فدلّوني على الطريق. هل كان الشغف لمعرفة ما سيحصل قد أوقعني في تلك المخاطرة الرهيبة؟ مهما يكن فإنها لحظات وستنتهي إلى مآل ما، لا كهذا الموت البطيء في المنفى، حين تود أن تشتري الخبز في الشهر الأول من وصولك إلى أوروبا تجهز نفسك كما لو كنت مسافراً إلى المريخ، أيام متماثلة ووقت بطيء، ثمة حرب خفية هنا في السعي الدائم بين المكاتب الإدارية تحت سماء رقمية ثابتة، هذه الحرب تشبه استقرار

رصاصة في عظم الصدر، فلا تغادر ولا تدخل إلى القلب، أما هناك فلم يكن الأمر سوى لعبة متجددة.

بعد أن عدنا من مشوار البيرة نظرت إلى المرآة، يبدو وجهي سرمدياً، لدينا الكثير من العمل، أيامنا مليئة بالحيوية وبلذة الكشف التي يمنحها الخطر، ثمة أناس آخرون سيأتون كل يوم خلال أحداث لا تتشابه، زمن يمر بسرعة الضوء، كذلك الزمن الذي يسبق يوم القيامة، ونحن لنا في كل يوم قيامة. غداً سأسافر إلى دمشق، قد لا أصل وقد لا أعود، مجرد هذا الاحتمال يبدو من العظَمة بحيث أوقن أن الحرب ليست بهذا السوء، فنحن نعبر كل يوم «شارع الموت» برؤوس بيضاء، لا نفكر إلا بأرجلنا، يفتح الموت ما شاء من احتمالاته، كما تفتح الحياة أسرارها، وحين نصل إلى الطرف الآخر نجد أننا قد ولدنا من جديد، وأن كل ما عشناه لم يكن سوى تمرين على ما سنعيشه حقاً.

صباحاً خرجنا بسيارة صديقي، أخطأ الطريق فدخل في «شارع الحضارة»، كان ثمة اشتباك بين الجيش والمسلّحين في «باب السباع»، السيارة في المنتصف، أخفضنا رؤوسنا، الرصاصة التي ستدخل في دم أي منها ستسكَر، وبالتالي لن تكون مؤلمة كثيراً، هذا ما خُيّل لنا، لكن لم يُصب أحد منا، ضحكنا ونحن نتلمس أعضاءنا بعد أن اجتزنا المنطقة، لنتأكد من أننا أحياء، كنا شبيهين بالصحفي المثابر «عبد الرحمن النعيمي» الذي مرت رصاصة قناص قرب أذنه في «باب السباع»، سنتيمتر واحد كان يفصله عن الموت، شدة صوت الرصاصة أفقدته السمع، لذلك كان يضحك كالمجانين وهو يروي لي القصة.

عبد الرحمن استشهد بعد خروجي من سورية خلال تصويره لإحدى المظاهرات في حي الميدان بدمشق، وهو الذي علّمني كيف أرفع مقاطع الفيديو على اليوتيوب؛ لم يتسنَّ لي أن أرى حتى مقطع فيديو لتشييعه، من قال إننا نجونا من الحرب بعد خروجنا منها؟

مائدة الأسلحة

السيارة تعبر شوارع حي «دير بعلبة» الضخمة والمظلمة، وهو يجلس إلى جانب السائق، لا تبدو سوى عينيه من وراء الكوفية، بندقيته بين رجليه، يمرّر أصابعه عليها كمن يهرش رأسه محاولاً التذكر، تارة، وتارة كمن يلمس كفّ الحبيبة، وصلت السيارة إلى منزله الذي لا يفصله عن حي «العباسية» الموالي سوى شارعين، دخل إلى الغرفة، عيناه ليستا نفسيهما، فهما لم تعودا تلمعان كما كانتا في السيارة، لكنه كان هو، فـ«الكلاشينكوف» لم تزل في حضنه بينما يتناول كأس الشاي من كف زوجته. «أبو عُدي» من عشيرة بني خالد، يعمل في رعي الأغنام والبناء نهاراً، ويحمي الحي ليلاً، سنختبئ عنده أياماً ريثما تهدأ الأمور بحي «البياضة»، ففي الشهر الأخير من عام 2011، ما زال البدو يعرفون كيف يديرون أمورهم على الرغم من الحرب.

صباحاً كان يلمّع بندقيته، يمسكها بشكل عمودي ويمسحها ببطء سانداً إياها على ركبته، تحيط به مخازن رصاص وثلاثة مسدسات، «لم نتسلّح في الثورة، فنحن بدو، نحتفظ بالسلاح في السلم، ونحمله في الحرب، صغيرنا قبل كبيرنا»، تابع: «مو بس إذا جا النظام، إذا جت

جيوش العالم ما أسلّمك إلا على جثتي، هذي عاداتنا!»، كان أبناء «دير بعلبة» يشاركون في أكثر الجنازات بحمص ويحمونها من غدر قوات الأمن، كما كانوا يؤمّنون المطلوبين الهاربين من مطاردة الأمن أثناء المظاهرات، ففي 21-5-2011، شيّع المئات من الحمامصة شهداءَ جمعة «آزادي»، ثم خرجوا من المقبرة متظاهرين في «شارع الستين»، فتح الأمن الرصاص عليهم وقتل عشرين مدنياً، حينئذ، لجأ المتظاهرون إلى حي «دير بعلبة» المجاور، فحماهم أبناؤه بأسلحتهم، وداووا جرحاهم في منازلهم.

غطى «أبو عُدي» بندقيته بالوسادة، «ربما تحتاجونها» قال قبل أن يغادر، حثثته على أن يأخذها معه فهو مَن سيواجه الخطر، كما أننا لا نجيد استخدام السلاح، ضحك وأخبرني بأنه يملك غيرها، زحف ابنه ذو العامين، ثم أدخل يده تحت الوسادة حتى وصلت إلى سبطانة البندقية، نظرْنا مذعورين إلى الأب، لكنه لم يبالِ، فهي في «وضع الأمان»، كل ما فعله أن ودَّع ابنه والبندقية بنظرة حنان واحدة.

أصوات الرصاص لم تنقطع في ذلك الصباح، بعد ساعة عاد «أبو عُدي»: «قوموا بسرعة، الجيش عم يحاول يقتحم دير بعلبة!»، ركضنا كالمجانين دون أن نرتدي ملابس الخروج، يتقدمنا «أبو عدي» بسلاحه، في منتصف الشارع سور حديدي يمتد على طوله، الرصاص يصطدم به ويعبر من بين أرجلنا، لم نكن نعرف وجهتنا، وفجأة فُتح باب أحد المنازل في الجهة المقابلة، نادتنا سيدة لندخل، أمضينا النهار في ذلك البيت، كان الأمر عبارة عن اشتباك عند «المدينة الجامعية»، ظنّه «أبو عدي» مداهمة، وقبل أن نغادر، قال صاحب البيت إنه مستعد لأن يبيع ذهب زوجته مقابل أن يشتري سلاحاً، ففي هذه الحرب، أصبحت الحياة بلا سلاح أصعب من الموت.

بعد عودتي من «دير بعلبة» إلى «البياضة»، فتحتُ باب غرفة الضيف لأطلب شيئاً من صاحب البيت الذي أقيم عنده، كانت الغرفة مضاءة بشمعة، وفي وسطها أسلحة مفككة يتحلق حولها ثلاثة رجال، ناداني «عمار» الذي كان أكثرهم خبرة بالسلاح: تفضل، وكأنه يدعوني إلى مائدة، تحدثوا ساعتين عن الأسلحة، عن جودتها ومصادرها، المسدسات وعياراتها، أسمائها الشعبية، القناصة: «أم عين» أو «عينين»، والمسدس «أبو ستة عيارات»، يبدو الحديث عن السلاح مرعباً في الظلام، لكنه مسلٌّ لمن أدمن عليه.

في تلك الليلة، تجولت مع «عمار» متجنبين السير في الحارات المكشوفة لقناصة النظام، سألته عن الغاية من هذه الأسلحة اليدوية في مواجهة القصف، أجابني بأنها وسيلة لتخويف النظام لا للنصر عليه، فالغرقى يتعلقون ولو بقشّة، ثم سرد قصته في فرع المخابرات الجوية بدمشق، كان العناصر يهددونه بأنهم سيغتصبون أمه وأخواته، ويغتصبونه أيضاً، «لذلك حملت السلاح بعد أن خرجت من السجن». ليس في سجون الديكتاتورية العربية وحدها، بل في سائر الأنظمة المستبدة، وفي الحروب كافة، يصبح العضو الذكري سلاحاً للتهديد كما أنه وسيلة للتعبير عن الحب واللذة، ربما هو السبب الذي جعل تصميم الأسلحة شبيهاً بشكل القضيب.

مع انتقال الثورة السورية من سلمية إلى مسلّحة خلال شهر أيلول/ سبتمبر 2011، صار الحديث عن السلاح محطّ اهتمام كثير من النشطاء، وذلك بغاية حماية المظاهرات السلمية، لكن مع الوقت، تحوّلت هذه الغاية إلى عشق للمغامرات والتباهي، فالبندقية شيئاً فشيئاً تتجاوز مهمتها لتصبح حبيبة وصديقة وزوجة، بل تصير قائدة لنزوات صاحبها، لذلك «لا ينبغي أبداً الاعتماد على من عرف لذة السلاح»، كما

قالت المرأة لزوجها المصاب في إحدى الحروب القبلية بأفغانستان[1]، ولذلك أيضاً، كان على النساء أن يقدن المعارك بدلاً من الرجال، ربما كنا سنشهد قتالاً أقل ضراوة وأكثر رحمة.

1- العبارة وردت في رواية الكاتب عتيق رحيمي «حجر الصبر».

رموز حمص يستيقظون في الغرفة المجاورة

اتصل بي صديقي ذلك الصباح: «عمر، جدّي توفى».

ـ وفاة طبيعية ولّا إصابة؟

ـ طبيعية..

ـ بسيطة، البقية بحياتك!

منذ آذار 2011، كلما سمع السوريون بخبر وفاة يطرحون السؤال السابق، فالموت لم يعد كما كان؛ ذا شكل واحد.

كانت الوفاة طبيعية، وفي اليوم ذاته حدثت وفاة أخرى غير طبيعية، في اليوم الأول من عام 2012، دخلتُ إلى المشفى الميداني في حي البيّاضة، العشرات يدخلون ويخرجون مهرولين، اضطراب يملأ الشارع، الضوء شديد البياض، و«محمود» نائم على السرير، جسده سليم، فلماذا كل هذا البكاء؟ امرأة بجانبه تلطم وجهها وتستجديه ليعود، دقّقت في الجسد، ثمة ثقب صغير في الصدر، فكّرت: ألا يمكن ترميم هذا الثقب؟ وضع قطعة قطن أو قليل من الجِبسِ مثلاً، بحيث يصحو «محمود» وتتوقف أمه عن البكاء؟ الجسد عارٍ، والبرد شديد، أحد القنّاصين من الحواجز

الشعبية رماه أثناء تجوله في الحي، أصحاب تلك الحواجز كانوا جيران أهل البياضة يوماً ما، وكانت بينهم علاقات وأعمال، يتبادلون الزيارات ويأكلون معاً، بل إن الشبّيح الذي اغتال «محمود» كان صديقاً للعائلة، كما حدّثني أحد أعمامه في ما بعد.

لم تكن الحادثة جديدة، فكل متتبعٍ يعرف أن قتل الرموز في حمص جزءٌ من استراتيجية النظام، والرموز هنا أولئك الأشخاص المؤثّرون الذين امتلكوا «كاريزما» خاصة أحبها الناس وتعلّقوا بها، و«محمود» بشجاعته المقترنة بالبراءة كان من رموز الحي.

سبق أن اغتال النظام «هادي الجندي» صيف عام 2011 برصاصة قنّاصة في «باب السباع»، عند ذاك أصاب الناسَ انكسارُ مَن فقد كل شيء، «هادي» لم يكن ينظّم المظاهرات في قلب حمص فقط، بل كان يجمع أبناء المدينة على قلب واحد، كان شبيهاً بالمخلّص، لذلك تحوّلت جنازته إلى مظاهرة شعبية كبيرة، الأمر ذاته حدث مع الطبيب الشاب «ماهر نقرور»، الذي قُنص أمام بيته في حي الإنشاءات، وقد كان أول من صرخ بكلمة «الله أكبر» أمام جامع خالد بن الوليد في 2011/03/18. «ماهر» كان مسيحياً، وحين تمّ إخراج التابوت من إحدى كنائس حي «الحميدية»، اندمجت أعداد كبيرة في التشييع، اجتازت الحارات والأسواق الأثرية، لم تكن تسير في طريق واضح، وكأن المشيّعين أرادوها جنازة أبدية، أو أنه لم تكن لديهم رغبة في إنزال «ماهر» عن الأكتاف، فقد كانوا يحملونه كما لو أنه «هتّيف» في مظاهرة.

لقد تعامل النظام بحقد وعدوانية شديدين مع هؤلاء الرموز، مَن لم يصفِّه منهم، اعتقله وعذّبه حتى شوّه شخصيته، أما الذين غادروا سورية فقد كان المنفى كفيلاً بتجميد رمزيتهم، كما أن النظام عمل على تحطيمهم اجتماعياً بتشويه سمعتهم؛ فهم أكثر من آذاه وأفشل

معادلته، هم ليسوا إسلاميين وليست لديهم أجندة سياسية، لذلك فإن تصفيتهم تعني بالتدريج تصفية مصطلحات «النضال» و«الوطن» من أذهان الناس، تحطيم إرادتهم وجعل نفوسهم خالية إلا من الانتقام، هكذا اغتال النظام الزمن السلمي من الثورة، بل حتى بعد انتشار السلاح واشتداد الحرب، ظلت تصفية الرموز الذين يكسرون القاعدة منهجاً متبعاً لدى النظام، ولدى وجهه الآخر من الإسلاميين، كما حدث مع الأب «فرانسيس فاندرلخت» في حمص القديمة.

طوال أشهر، بقي «محمود» يحرس تلك الحارة الصغيرة ليلاً، وينام نهاراً. كلما نزلتُ إلى الطابق الأرضي من البناء ألمح عينيه وراء الباب، كانتا على الدوام شبيهتين بعينَي نسر يتطلع إلى ما وراء العاصفة، كان يملك ستة عشر عاماً ومصباحاً ليزرياً يقلبه بين يديه حيثما ذهب، إضافة إلى كثير من الإخوة والأعمام والأخوال، ها هو ذا أخوه يضرب مغلاق محل مجاور بقبضتيه ويصرخ باسمه، ابن عمه يسند رأسه إلى الجدار منهاراً، وآخرون أصيبوا بحالة من الذّهان، فلا هم يبكون ولا هم يصرخون.

شاهدت «محمود» قبل ليلتين، كان مستلقياً بجانب المدفأة كما هو الآن، يغمض عينيه في فترة استراحةٍ قبل مجيء دوره في الحراسة، كان أولاد عمومته يمازحونه وينادونه متهمين إياه بأنه يدّعي النوم كي يتخلف عن عمله، ها هم ينادونه الآن أيضاً، لكن بصوت أكثر قوة.

الكاميرا في يدي مصوبة باتجاه الثقب، بدا شبيهاً بثقب أسود سيبتلع المجرّة، ثقب في ضمير الكون، قام عمّه، الذي كان كهربائياً وتعلّم الإسعافات الأولية خلال الثورة ليصبح «طبيب الحارة»، بإحضار أكياس بلاستيكية ولفّ الجثة، إخوته أخرجوا «أم محمود»، ثم تعاون الجميع على نقله إلى الغرفة الأخرى من المشفى، التي كانت مخصصة

للراحلين، تمهيداً لتشييعه غداً، هي غرفة ملاصقة للغرفة التي ننام بها في الشقة المجاورة، طوال الليل بقيت أشعر بالشاب النائم إلى الأبد، جسده هناك، إلى جواري، لكن أين كان هو بالضبط؟

الليلة، بعد ثلاث سنوات لم يتغيّر شيء، «محمود» نائم في غرفة مجاورة، كما كان في العيادة الميدانية، وكما كان أثناء انتظار حراسته. هنا في فرنسا، ثمة غرف كثيرة مجاورة، في كل منها ينام «محمود»، حوله كل تلك الوجوه المضيئة من الزمن المُغتال، زمن الثورة الجميل، وجوه تستيقظ وتكسر الجدار، ثم تدخل ببطء كي تدعوني إلى السهرة.

البطاقة الشخصية والهوية

نصف ساعة من التأخر جعلتني أقف في آخر الطابور العالمي أمام مركز اللجوء (الأوفبرا)، الذي يحوي أناساً من الفيتنام والهند ومالي والصومال والكونغو والجزائر وصولاً إلى سورية، كلهم هجروا بلادهم ولجؤوا إلى فرنسا، ساعة من الانتظار كانت كافية ليتجمّع عشرات الأشخاص ورائي، في طقس شديد البرودة، وأخيراً سُمح لنا بالدخول على دفعات.

أتيت لكي أستعيد بطاقتي الشخصية السورية، أو «الهوية» كما نسميها مجازاً، وذلك بهدف إتمام إحدى المعاملات الإدارية، الموظف ذو اللكنة الإسبانية يتصرف بعصبية شديدة، يأخذ بطاقتي الفرنسية ويختفي لعشر دقائق ثم يعود، يرمي مغلفاً على الطاولة دون أن يلتفت إلي، يطالبني بالتأكد من أنه يحوي بطاقتي الشخصية، لم أرَ هذه البطاقة منذ ثلاث سنوات، إذ يُمنع على اللاجئ السياسي استرجاعُها دون سبب طارئ حتى سقوط النظام.

تعرِض شرائح الذاكرة بمجرد وضعها في الكمبيوتر، آلاف الصور ومقاطع الفيديو مع تواريخها. كذلك تبدو البطاقة الشخصية بعد فراق

طويل، لكنها لا تحتاج إلى وضعها في الرأس، بل يكفي النظر إليها ليعود الزمن كشريط سينمائي، هذه البطاقة شاهدت مغامرات حب وقطعت شوارع رعب واجتازت أمكنة لم تعد موجودة، كما شهدت على الكثير من الأحاديث والدموع والرصاص، وعاشت الخوف وأقصى التناقضات، مع ذلك، تبدو أكثر أناقة مني، فالنظام يتفنن في صناعة البطاقات وتجليدها وتجديدها، كلّما تفنن بقهر صاحبها وسحقه.

كثيراً ما كرهنا هذه البطاقة وتشاءمنا منها، لأنها مفروضة علينا من الحكومة، لكنها في المنفى تخرج عن إطارها الرسمي محاورة كينونتنا، تنبش ما لا يُحصى من المواجع والتساؤلات عن هويتنا السورية المفقودة، والتي لا يحددها الاسم والمنطقة والعمر و«الديانة» بأية حال، بل كرامتنا على الأرض السورية، هي لم تعد بطاقة فقط، بل شاهدة، هي (أنا) السوري المهزوم والمتأمل.

يعرف كل سوري أن بطاقته الشخصية تخفي شيئاً ما، فالمنطقة السفلية منها مشفَّرة بخطوط سوداء، وتحتها نبذة أمنية عن حاملها: انتماؤه الحزبي، متعاون أو متذمر.. إلخ. حقيقةً، لا نعلم ما الذي تخبئ هذه الخطوط بالضبط، هكذا يبقى قدَرُ الإنسان السوري أن يحمل ما يجهله، تماماً كـ «المملوك جابر» في مسرحية سعد الله ونوس «مغامرة رأس المملوك جابر»، التي استوحاها من قصة تاريخية حقيقية؛ فالرسالة التي كُتبت على جلدة رأس «جابر» الأصلع، ليهرب بها خارج القلعة المحاصرة دون معرفته أنها تتضمن عبارة «وكي يظل الأمر سراً بيننا اقتل حامل الرسالة»، قد تكون هي ذاتها تلك العبارات المخفية على البطاقة الشخصية، أما الخطوط السوداء فقد تكون شَعر «جابر» الذي انتظر الكاتبُ أن يطول كي يخفي الرسالة تحته، هذا يدفعنا إلى التساؤل عن كمّ التشوّه الذي لحق بالإنسان السوري وبالهوية السورية، فأجهزة الأمن يحق لها أن تعرف عن الشخص أكثر مما يعرف هو.

في حي البياضة الحمصي، وفي جمعة «إضراب الكرامة» بتاريخ 2011/12/9، أحضر المُسعفون شاباً مصاباً في رأسه برصاصة قناصة، كان قد لفظ أنفاسَه الأخيرة مع وصوله إلى المشفى الميداني، مُدّد على أرض الغرفة لأن السرير لم يكن شاغراً، فتَّشهُ المسعفون فلم يعثروا على أية ورقة ثبوتية في جيوبه، ولم يكن أحد منا قد رآه من قبل، هكذا بقيت هوية هذا الشاب مفقودة إلى الأبد، لعل هويته الوحيدة كانت تلك الرصاصة، لم يبكِهِ أحد ولم يأتِ أحد ليسأل عنه، وفي اليوم التالي تمّ دفنه في إحدى حدائق البياضة، كان قبراً وحيداً وخالياً من أي اسم، هذا القبر لم يكن سوى سورية.

مئات اللاجئين ينتظرون الآن في مبنى (الأوفبرا)، كل منهم يحمل بطاقة فرنسية وأخرى منسيّة، يدير عيونه في كل الاتجاهات مفتشاً عن ذات ضائعة، الموظف الإسباني يطالبني بالتوقيع على ورقة تنص على أنني سأعيد البطاقة السورية فور انتهائي منها، وأمامي على الطاولة بطاقتان، تحملان المعلومات ذاتها، بلغتين، غير أنه مضاف إلى البطاقة الفرنسية كلمة صغيرة تكاد لا تُرى: «لاجئ سياسي».

إيميل الذاكرة والموت

كتبٌ جامعية ودفاتر، جهاز كمبيوتر وأقراص معدنية وأوراق رسمية وشهادات، كانت كلها مبعثرة في زوايا الغرفة الصغيرة من منزل العائلة في «الخالدية»، التي أقمتُ فيها خلال سنوات الدراسة، هذه الغرفة اختزنت أرشيفاً كاملاً عن تلك السنوات، إضافة إلى ما تبقّى من نسخ ديواني الأول «ترانيم الفصول»، وقبل أن أغادر حمص بتاريخ 2012/01/03، خارجاً من حي «البياضة»، مررت بالبيت، فتحت باب الغرفة، وخطر لي أن أجلب معي كل ما فيها، فهو لن يأخذ حيزاً كبيراً من وسائل النقل، لكن ماذا عن حواجز التفتيش؟ سيجد الجنود بين هذه الأشياء أسباباً كثيرة لمصادرتها واعتقالي، وهي مهمة جداً، لأنها تحوي ما كتبت خلال سنوات، كما أنها توثّق عدة مظاهرات، لذلك كان من الأفضل الإبقاء عليها في مكانها، وقد كانت فكرةً خاطئة، إذ إن البراميل التي هبطت فوق المنزل بعد أشهر حوّلت الغرفة مع كل ما فيها إلى أطلال.

ثمة طريقة اتّبعها كثير من السوريين لحفظ الملفات دون أن يتركوا لها أثراً يتعقبه الرقيب، وهي إعادة إرسالها عبر الإيميل، بحيث يكون

الشخص المرسِل هو المستقبل، وبهذا يضمنون عدم ضياعها حتى ولو زالت عن الجهاز أو الأقراص، كنت أقوم بهذه العملية يومياً، وقد أنقَذَتْ عشرات الملفات الهامة، كما أنقذتني من ضياع محتّم بعد أن زال كل ما أملكه، فهل نقول إن قدرة العالم الافتراضي على حفظ أشيائنا أعظم من قدرة الواقع أحياناً؟

كان الأمر أشبه بالمونولوج، أُرسِل رسالة فيظهر في العدّاد أن أحداً ما راسلني، ثمة حوار بين (أنا) و(أنا) ثانية، وبعيداً عن الشيزوفرينيا التي تكاد تصبح حالة عامة بين السوريين، فإن العالم الافتراضي يزيد معرفة النفس بأسرارها عن طريق إثارة الذاكرة والحفاظ عليها.

مرة أعدتُ فتح إيميل كنتُ قد أهملته لعدة سنوات، فأبهرني كمٌّ هائلٌ من العلامات التي تدلُّ على ماضيّ، رأيتُ ملامحي، لا بواسطة صورة شخصية، بل بمراسلات وحوارات وأصدقاء سابقين، فالإيميل يعني بطريقة ما توثيقاً للتاريخ الشخصي. وهو يأخذ معنىً شاعرياً أيضاً، كسائر الأمكنة المهجورة التي تذكّرنا بلقاءات حميمة ومفارقات يومية وحوادث هامة تجاوزناها أو لم ننتبه إليها، تلك الـ(أنا) الماضية يُعيدها العالم الافتراضي مكتملة إلى الحاضر، دون أن يُلغي المسافة بيننا وبينها، ولهذا نراها بشكل واضح ومبهر، وكأننا في تلك اللحظة العجيبة من مداهمة الموت، التي قال جميع من عاشوها ثم عادوا إلى الحياة إنهم رأوا مشاهد حياتهم بأكملها تمر أمامهم.

من جانب آخر، قد يكون العالم الافتراضي سبباً لمحو ماضينا، وذلك حين يموت الإنسان واقعياً مع بقاء حساباته الافتراضية مفتوحة، أي يبقى حياً على الإنترنت، ولأن الذاكرة الرقمية هي المهيمنة على ذاكراتنا اليوم، فإن كثيراً من المعلومات تُمحى بعد الوفاة، لا سيما أن كلمات السر ترافق الميت إلى قبره، شركات الاتصالات أوجدت حلولاً

لهذه المشكلة، وهي أن من حق الورَثة الدخول إلى حسابات المتوفين، وفي حال لم يكونوا قد أوصوا بذلك فإن للورَثة أن يغلقوها بتقديم شهادة قانونية، وبهذا ينتهي الأرشيف إلى الأبد، حتى ولو كان يعود لشخصية هامة ومؤثرة، ذلك الأرشيف الذي كثيراً ما تحوّل إلى متحف من الرسائل والمسودات قبل وجود الإيميل.

بعد أن أغلقتُ باب غرفتي، كانت أمي قد أعدّت لي كأساً من البرتقال، أصرّت على أن أشربه قبل أن أغادر إلى دمشق، قبّلتُ يدها، وودّعت البيت الذي ما عاد اليوم موجوداً، أما كفّ أمي التي لم أرها بعد ذلك، فقد كانت تفوح برائحة البرتقال والأمومة، هذا ما لم أستطع تهريبَه عبر الذاكرة الرقمية، لكنه ما زال محفوراً في ذاكرتي الواقعية، وفي شفَتيَّ أيضاً.

تعقيب:

من جوانب محو العالم الافتراضي للذاكرة السورية، حذف الرسائل والأحاديث التي كانت تجري عبر «الفيس بوك» بين سوريّي الداخل خشية اختراق حساباتهم من قبل المخابرات، وبهذا ضاعت كثير من اللحظات التي توثّق الجانب الإنساني من المرحلة.

هامش افتراضي:

كلما فتحنا صفحات الأصدقاء الشهداء الذين بقوا أحياء على «الفيس بوك» أو «السكايب»، انتابنا فضول في أن نرسل إليهم رسالة، لعلهم يردّون من العالم الآخر، لا بدّ أن يظهروا لنا يوماً ما كمتصلين، ويطمئنونا عنهم، فقط لأننا لم نحذف أسماءهم من قوائمنا.

حي «الوعر» المحاصر

كان «أبو بكري»، كلما أصيب أولاده بمرض «الرَّبو»، يأخذهم إلى «الوعر» كي يستنشقوا الهواء النظيف، يقطف نبتة البابونج البري التي تكثر هناك ويغليها لهم، وقتذاك لم يكن في الحي سوى القليل من المنازل، وفي أواخر السبعينيات؛ عندما بدأت حركة إعمار الحي سعى كثير من الحمامصة إلى امتلاك شقة فيه، بسبب اتساعه وطبيعته الساحرة ورخص أسعاره، لأنه كان بعيداً عن قلب حمص، لكنه أصبح منذ أواخر التسعينيات جزءاً منها مع احتوائه على القصر العدلي ومركز الهاتف ومدينة المعارض.

خلال الشهور الأولى من الثورة، كانت تخرج في الحي مظاهرات صغيرة وطيّارة، ثم تحوّلت إلى مظاهرة كبيرة ومنظمة تضم المئات مساء كل يوم أمام جامع الشهداء (الرئيس سابقاً)، أما يوم الجمعة، فقد كان يتحوّل إلى حفلة رصاص أمام مشفى «جمعية البِر» بين أبناء العشائر القاطنين في «الوعر القديم» وعناصر الأمن، فقد كانوا يحاولون اقتحام المشفى لاعتقال المصابين الذين أُسعفوا إليه من إحدى المظاهرات في حمص القديمة، إلا أن الحي بقي هادئاً مقارنة بغيره، باستثناء عمليات

إطلاق النار التي كانت تحدث يومياً قرب مخفر الشرطة، كما أنه بقي إشكالياً: فهو يحوي كثيراً من المؤيدين والمعارضين والمحايدين، وتوجد فيه (الكلية الحربية) التي يعود تاريخها إلى زمن الانتداب الفرنسي عام 1920، كما أنه يمثّل الجانب الراقي والجديد من أحياء حمص.

تبدّلت أحوال الحي مع تحوّله إلى ورقة تهديد للكتائب في حمص القديمة: كلما اقتربوا من الأحياء الموالية يقوم النظام بقصف الوعر، إضافة إلى عمليات خطف الفتيات التي كان يمارسها شبّيحة قرية «المزرعة» الموالية والمحاذية للحي، والتفجيرات الكثيرة مجهولة السبب التي كانت تحدث في الكلية الحربية، وعمليات القنص من برج «الغاردينيا» «الموت» الذي يكشف معظم أرجاء حمص، هذه الأعمال انتشرت في أواخر عام 2011.

بعد خروج المعارضة المسلحة من حمص القديمة، بالاتفاقية الشهيرة مع النظام؛ استفرد الأخير بالحي وبدأ حصاره منذ بدايات عام 2014، فاستراتيجيته كما هي في سائر الأحياء والمدن السورية: يتركها ريثما يتجمّع فيها أكبر عدد من المسلحين والنازحين، ثم يبدأ حصارها وإبادتها منهجياً تمهيداً لاجتياحها، وذلك حسب أهميتها الجغرافية، سبق أن وقّعت عدة اتفاقيات بين النظام والمعارضين المسلحين، لكنها باءت جميعاً بالفشل، بسبب استمرار النزاع في مناطق أخرى، ومع الوقت تحوّل «الوعر» إلى مسرح للانتقام الشديد من قبل النظام، خصوصاً بعد التفجيرات التي طالت حيَّي «الزهراء» و«عكرمة» الموالِيَين.

«أبو بكري» الذي عمل سائقاً لسيارة أجرة، أمضى عمره منحنياً وراء (الديركسيون) لكي يشتري منزلاً لأولاده السبعة في هذا الحي، كما اشترى عيادة طب أسنان وضعها في إحدى الغرف من أجل ابنته المتخرجة حديثاً: صبا، وفي السنة ذاتها تمّت خطوبة صبا لزميلها في

الجامعة، فتركت حمص وانتقلت إلى ريف دمشق لتعيش مع زوجها (أبي)، بعد سنوات من إقامتها هناك، لم تسر الأمور على ما يرام، فعادت إلى حمص، سكنَت في بيت الوعر وتابعَت عملها في العيادة. كنت في الرابعة، وقد بقيتُ وإخوتي في قرية أبي «القطيفة»، كنا نسافر في العطل لنراها، فنقضي أوقاتاً شكّلت في ما بعد جزءاً حيوياً من ذاكراتنا وشخصياتنا، تلك البيوت التي تلفّها أشجار الليمون والدراق، البساتين المطلّة على العاصي، الشوارع الشديدة الانحدار التي كنا نجتازها بالدراجات ونحن ممسكون بأكياس العصير، الوعر مثّل بالنسبة إلينا الحياة الهادئة مع الأم التي لم نلتقها في طفولتنا إلا خلال عطلة الصيف، كنا نسألها عن سبب عدم عودتها لنعيش معاً، فترد بأنها تعمل لتؤمّن مستقبلنا، هكذا أمضت عمرها على كرسي طبيب الأسنان لتشتري لنا بيتاً آخر كبيراً في «الوعر» أيضاً.

أثناء دراستي الجامعية كنت أجد ملاذي في هذا البيت الذي يمنح ساكنه كثيراً من العزلة والجمال، فهو في الطابق الرابع، ويطل على معظم أرجاء الحي، وبضمنها الحدائق والطريق العام البعيد نسبياً، كانت السيارات والأضواء تُرى من شرفته دون أن يزعج الرائي أيّ ضجيج. في الشتاء أخلد إلى عزلتي فيه لأسابيع دون أشعر بالملل، وإلى هذا البيت اصطحبت أول فتاة أحببتها، صعدت قبلها كي لا يكشفنا الجيران، لحقَت بي، وهناك، بجوار أوراق شجرة الكينا التي تصل إلى الشرفة، تعرفت لأول مرة على أسرار الجسد، وجنّات الشهوة. وحين اختبأت فيه إثر اعتقال الصديق «محمد ديبو» في الأيام الأولى من الثورة، كنت أطفئ الأضواء وأجلس ساعات طويلة أمام الكمبيوتر، إلى أن سمعت طرقاً على الباب في إحدى الليالي، أيقنت بأن الطارق عناصر المخابرات، وكنت مسبقاً قد رسمت خطة في حال قدومهم: سأختبئ تحت السرير ـ يا للسذاجة! لكنني حين نظرت من العين الساحرة، رأيت

تلك الفتاة المجنونة، لقد اجتازت الحواجز، من المدينة الجامعية إلى الوعر، واستطاعت الوصول بدهاء المرأة، هكذا اختبأنا ليلة كاملة من أهوال العالم، لكن فوق السرير لا تحته.

في الشهور الأولى من الثورة، تكرّر الصعود الفردي إلى المنزل، ليس خوفاً من الجيران، بل من الأمن، الرقابة الاجتماعية تشبه الرقابة الأمنية في بعض وجوهها، كنتُ أصعد أولاً، ثم يلحق بي ناشطو (تجمع «نبض» للشباب المدني السوري) كي نعقد اجتماعاتنا وننسق للمظاهرات، هكذا بقي «الوعر» ملجأً للمطلوبين والنازحين والعشاق.

اليوم، في الشهر العاشر من عام 2014، حي «الوعر» المحاصَر يُحاصِر المنفيّ عنه، وإذ ينجح الاتصال به بعد أشهر من المحاولة، أتحدث مع أمي لخمس دقائق، أسألها كيف يتدبرون أمور معيشتهم، فتجيب بأن معظم المواد الغذائية مقطوعة منذ أشهر، ولكي لا أقلق تكذب وتتابع: لا تخف، نحنا بخير!

أمي غادرت «الخالدية» بعد اشتداد القصف واستقرت في هذا البيت رافضة المغادرة مهما كان السبب، فهي لا تملك بيتاً آخر في أي مكان من العالم، كانت تحدثني من القبو، فعُلوّ البيت الذي كان يمنح الرائي الجمال، أصبح يمنحه القتل في أية لحظة، هذا الشتاء يبدو قاسياً، وفي «الوعر» يشتد البرد والمطر، كما يشتد تساقط البراميل، ثلاثمئة ألف نازح ممنوعون من الخروج، لا شيء يدخل إليهم منذ أشهر، وقد دُمّر أكثر من نصف الحي تدميراً كاملاً أو جزئياً.

الشعور بالذنب ينهشني، لقد تركتهم وحيدين وغادرت، لكنني لم أكن أعلم أن مثل هذا سيحدث، هكذا أبرّر عجزي، قبل أن ينقطع الخط، غير أنّ أمي توصيني بشيء واحد: أن أدفئ نفسي جيداً وأنا في باريس، لأن البرد شديد هناك كما تقول.

مقبرة الحديقة

حديقة «لوكسمبورغ» عمل فني خارج المسميات، جنة تتحد فيها الطبيعة مع ذائقة الإنسان، لكن بصري يحاول أن يغوص أسفلها، ما الذي كانته هذه الحديقة قبل مئات السنين؟

الشرطي الأنيق يصفّر إيذاناً بالإغلاق، يخرج الزوار أفواجاً عبر ممر ترابي عريض، وصلت إلى البوابة الحديدية، التفتُّ إلى الوراء؛ غاب الزوار وحضرت صورة المهجّرين السوريين الذين يقطعون الحدود تاركين حدائق كثيرة، منها الحديقة العامة في حمص، التي كانت تُسمى قبل عشرات السنين «مقبرة باب هود»، فعلى هذه المقبرة أقامت بلدية حمص حديقة عامة، أما مقبرة «طريق الشام» فقد تحوّلت إلى حديقة تمتد من قلعة حمص شمالاً حتى مدرسة «رزق سلوم» جنوباً، لكنني كثيراً ما كنت أشعر أن الأمر كان طبيعياً، فمن عادة الناس أن يفرشوا الآس والورود على القبور، ربما كبُرت هذه النباتات وأصبحت حديقة في ما بعد.

خلال الحرب السورية، لم تعد مقابر حمص تتسع للضحايا، لذلك كانوا يُدفنون في الحدائق، فقد تحوّلت الحدائق العامة في كل

من «تلبيسة» و«الرستن» إلى مقبرة، وصارت حديقة «الخالدية» تُسمى بـ«مقبرة الشهداء»، إضافة إلى عدة حدائق أخرى في «البياضة» و«باب هود» و«الوعر»، كلها أصبحت مقابر، بل عادت كما كانت: مقابر، فقد كان من حق أبناء حمص الموتى أن يتنزهوا في قبورهم/ الحدائق، لكن الحرب أوقفت نزهتَهم، ويوماً ما، حين نغطي هذه المقابر بكثير من الورد، سترجع حدائق، وتعود الزهور أفواهاً للموتى، هي دورة خالدة ينتفي فيها كل من الموت والحياة.

أما «لوكسمبورغ»، فقد كانت قصراً بنَته «ماري دو ميسي» زوجة الملك «هنري الرابع» فوق تلة عالية في القرن السابع عشر، لكي يعيش طفلها الملك «لويس الثالث عشر» حياة هانئة ويتنفس هواء نقياً، في حين كان الفرنسيون يعاركون الجوع، لكنهم بعد عشرات السنين، خلال الثورة الفرنسية، قوّضوا القصر لينشئوا هذه الحديقة التي لم تعد فوق تلة عالية، بل بمستوى سائر الأراضي في باريس، يدخلها الناس من كل الجنسيات، ويقرعون كؤوسهم أحراراً على مقبرة الديكتاتورية.

الرأس تمثال للجمال وللفجيعة

أدخِلتُ مع الأطفال إلى الفناء الخلفي من الدار، كان الخروج ممنوعاً علينا حتى ينتهي الأمر، لكنني خالفت القانون ومددت رأسي، ثلاثة رجال يجرّون الكبش، في يد أحدهم تلمع سكين ضخمة، شمس الصباح تغطي ورق الدالية وبقايا الماء على سطول الورد، الكبش يعاند، لكن زنود الرجال تطرحه أرضاً، وضع القصاب السكين على عنقه، وأمسك به الباقون، «باسم الله.. الله أكبر»، لا أنسى ما حييت صرخة الحيوان المذبوح، كانت تجمع أوجاع العالم، صرخة ما زالت محفورة في عقلي إلى اليوم، كلما تذكرتها أتلمس عنقي وتنتابني قشعريرة المحكوم بالإعدام.

محلات اللحم (الحلال) تملأ باريس، ثمة سباق على بيع اللحم المذبوح حسب الطريقة الإسلامية، هو الأكثر رواجاً كما يبدو، كلما مررت أمام (مجزرة إسلامية) أرى النبي إبراهيم وتتناهى إليّ صرخة خروف ذُبح بالنيابة عن ابنه إسماعيل، وبجانب كلمة (حلال) أرى سكاكين تنظيم «داعش»، لكن ما العلاقة بين جريمة الذبح وأن يمارَس هذا الفعل لتأمين القوت البشري؟

كثيراً ما كان الذبح رديفاً للاحتفال والكرم عند العرب، من

عادات البدو ذبح الشاة للضيف، إلى عيد الأضحى، مع أن للبشرية تاريخاً حافلاً بإعدام الناس ذبحاً، سبق أن اخترع الطبيب الفرنسي «غيلوتين» المقصلة، وأرّخها بعبارته الدعائية: «مع آلتي هذه، بلحظة واحدة سأقطع رأسك، ولن تعاني»! حصدت آلته مئات آلاف الأرواح، وكانت لعبةَ «روبيسبيير» رمز المقاومة الفرنسية ضد الملكية، فبعد أن أعدم بها ملوك القرن الثامن عشر، استمر بإصدار أحكام الإعدام على «خائني الثورة»، الذين لم يكونوا في الحقيقة سوى أعدائه الشخصيين، ثم اقتربت المقصلة من رقاب أعضاء البرلمان الفرنسي، بل من رقبة «غيلوتين» نفسه، حينئذ أمسك الجميع برأس «روبيسبيير» وأدخلوه في الآلة الرهيبة.

في أوروبا تكثر تماثيل رؤوس الفلاسفة والشعراء والمجرمين أيضاً، ثمة تمثال من الشمع لرأس «روبيسبيير» في متحف مدام «توسو» في لندن، بالمقابل نرى تمثال رأس «نفرتيتي» في متحف برلين، ذلك الرأس الذي أصبح رمزاً حضارياً لألمانيا كما هو رمز لمصر، لكن الزائر السوري الذي شوّهت الحرب ذائقته يتذكر، حين يرى هذه التماثيل، تلك الرؤوس المعلّقة في ساحات مدينة الرقة أو قرب الفرقة 17، التي قطعها داعش.

على مر العصور بقي الرأس رمزاً للجمال أحياناً، وللفجيعة أحياناً أخرى، لكن، ثمة أمثلة قليلة للتماثيل التي تمتزج فيها أعلى درجات الوحشية بأكثر الفنون إدهاشاً، كما في قصة «ميدوسا»، ففي الأساطير اليونانية أن «ميدوسا» كانت بنتاً جميلة، مارست الجنس في معبد «أثينا» خلافاً للتعاليم، فانتقمت منها الآلهة بأن جعلت ضفائرها ثعابين، ثم قطعت رأسها وأهدته إلى «أثينا».

تسود المدنَ التي يسيطر عليها تنظيم «داعش» ما يمكننا أن نسميه بـ(سوريالية الجريمة)، هذه السوريالية ليست إلا استكمالاً لمسيرة

تاريخية بدأت برأس «الحسين» الذي وُضع في «متحف الثأر» قبل أكثر من ألف ومئة عام، لتبقى عبارة «يا سياف.. اضرب عنقه!» شعاراً للخلفاء والولاة على مدى الدولة الأموية وما بعدها، لا سيما «الحجاج بن يوسف الثقفي»، الذي ابتدأ ولايته على العراق بخطبته الدموية الشهيرة: «إني لأرى رؤوساً أينعت وقد حان قطافها، وإني لصاحبها».

لم يسبق أن مارس أحد في التاريخ عملية الذبح الداعشية باستثناء الخوارج، فقد جاء في المرويات التاريخية أنهم ذبحوا الصحابي «عبد الله بن خباب» كما تُذبح الخراف، وقد يكون للأمر صلة بالمرجعيات التاريخية لـ«داعش»، فكلاهما يتقاطعان في محاربة الجميع وتطبيق أقسى طرق القتل، لذلك لم يكن غريباً أن يبدؤوا مسيرتهم المرعبة بتحطيم تمثال رأس المعري، فذلك الرأس الرمز لـ «إمامة العقل» مناوئ ندٌّ لـ«ثقافة الذبح»، لكن الجريمة الكبرى التي ارتكبها «داعش» كانت تدريب الأطفال على قطع رؤوس الدمى، تمهيداً لتحويلهم إلى آلات ذبّاحة في المستقبل، فعلى الطفل أن يقطع رأس اللعبة ويضعه فوق جثتها محاكاة لأفعال «الدولة».

الذبح إذاً لا يقتصر على الواقع، بل يتعداه إلى المخيّلة والمحاكاة، التي كانت مهد الفن منذ آلاف السنين، هكذا أتذكر ذلك الكبش الذي رأيته في طفولتي، وإذا كانت صرخته لم تفارقني حتى اليوم، كيف سيفارق أطفال سورية والعراق ما يرونه من ذبح البشر؟!

عن سجن بواسِّي و«كارلوس الثعلب»

هو يبعد عني ربع ساعة الآن، في سجن «بواسّي» الفرنسي، سألتقي «كارلوس» أو «الثعلب الشبح» كما كان يُلقّب طوال عقود من المطاردة، حتى إلقاء القبض عليه عام 1994 من قبل المخابرات الفرنسية.

«لن نأخذ معنا سوى القصائد»، قال «جاك فورنييه» وهو يضع حقيبتينا في صندوق السيارة، تبدو «بواسّي» المشمسة قريبة من مدن الشرق، شمال غرب باريس، يقضي السجناء وقتهم، معظمهم محكوم بالسجن مدى الحياة، وتنظّم المؤسسات الثقافية الفرنسية لقاءات دورية معهم، أما اليوم، فسوف أحاورهم بدعوة من «جاك» مدير «بيت الشعر» في مدينة «فيرساي»، كما سأقرأ مجموعة من قصائدي.

كان علينا أن ننتظر ربع ساعة، بعد أن فُتحت البوابة الكبيرة، يحتاج الحارسان أن يتأكدا من هويتينا، أجريا مجموعة من الاتصالات مع إدارة السجن، بينما «جاك» يخبرني بأن اللقاء سيستمر ساعة، ولن يُسمح لنا بالبقاء دقيقة بعدها، فمعظم جرائم السجناء تتعلق بالإرهاب. ثمة عصفور يلاحق أنثاه بين شجرات السرو المحاذية للجهة الداخلية من السور، هو شهر شباط، طلب الحارسان منا أن نمر عبر بوابة التفتيش،

أخرجت ما بحوزتي من أدوات معدنية، لكن البوابة بقيت ترنّ، وأخيراً اكتشفت أن السبب قطعة معدنية شديدة الصغر في أنشوطة حذائي.

اجتزنا ممرات وبوابات أخرى، حتى التقينا بـ«كاترين» التي تعمل مدرّسة في السجن، حيث يستطيع السجناء أن يُكملوا دراستهم من المرحلة الابتدائية وصولاً إلى الإجازة الجامعية، قادتْنا إلى بوابة ثانية ليتم تفتيشنا من جديد. في الممر الأخير سألتني: «هل تشعر بالخوف؟»، «هي المرة الأولى التي أدخل فيها سجناً، لكنه بالتأكيد أرحم من سجون بشار الأسد» ـ أجبتها ونحن نعبر ساحة مغلقة بأسلاك شائكة عالية. أخيراً استقبلَنَا عنصرٌ من الشرطة، مررنا بثلاث بوابات حديدية ضخمة، فبدت ساحة أخرى كبيرة تحوي منصّات لكرة السلة، نحن الآن في قلب السجن.

صعدنا بعض الأدراج، فظهر أحد السجناء وبيده مجموعة من الأوراق، أخبر كاترين بأنه يود أن يُرسل آخر قصيدة كتبها إلى حبيبته، لكن المشكلة في أنه نسي اسمها، ضحك ونظر إلينا ليعرف ما إن كنا ننظر إليه كسجين، كمختل، أم كمجرم. على الجدار مجموعة من الملصقات عن فعاليات ثقافية في السجن، وقصائد بالفرنسية لشعراء فرنسيين وعرب، كانت كلها معلّقة مقابل قاعة الدروس.

كاترين تُعدّ القهوة، و«جاك» يُطالع الإعلانات حول طاولة كبيرة في منتصف القاعة، ماذا يدرسون هنا؟ كل المواد، إضافة إلى اللغة الفرنسية لمن لا يتقنها، لا شيء وراء الشّباك سوى زرقة العصر، دخل أحدهم وطلب مني التوقيع على نسخة من كتابي، كانت قد وصلت إلى السجن عبر «بيت الشعر»، سألته عن اسمه، «أرجو أن تكتب: إلى مكتبة السجن»، بعد خروجه أخبرني جاك بأنه محكوم بالسجن المؤبد، وبسبب سلوكه الحسن عُيّن مديراً للمكتبة، لقد وجد عملاً في مكتبة! ليتني سجين هنا، أجبت جاك.

سجين آخر درس العلوم الإسلامية في طهران، وكان محارباً في الثمانينيات بجنوب لبنان، «علي» أخرج مجموعة أوراق من ملف أسود، وبدأ يدعوني إلى التشيّع، كان جاك يعلن بداية الجلسة، عدد السجناء ستة، لا نستطيع هنا أن نسأل عن أسباب الاعتقال، اقتربت من جاك وسألته عن إشارة أعرف من خلالها «كارلوس»، فأجابني بأنه الرجل الذي سيأتي ويقبّل كف كاترين، ثمة سجين تركي كردي لطيف جداً، صبّ القهوة للجميع، قرأت بعض القصائد عن المنفى، السجناء يصغون باهتمام مبالغ فيه، و«علي» يكتب شيئاً ما.

افتتح جاك الحوار، كان معظمه عن كيفية الخروج من سورية، وعلاقة الإسلاميين بالإسلام، ثمة جذور عقائدية في التاريخ الإسلامي يجب أن تعالَج، كان هذا رأيي، أما علي فقد وضع اللوم كاملاً على الغرب في تخريب الإسلام واختلاق الأنظمة الديكتاتورية، حين رددت عليه: وماذا فعلنا نحن؟ لكزني جاك كي لا أتوغل بمواضيع جانبية، قرأت قصيدتين، ثم سألني مدير المكتبة عما أشعر به في المنفى، كان الإحراج في عموم الحوار كبيراً، فالزائر لا يريد أن يُعامِل الحضور كسجناء، لكنهم سرعان ما يكتشفون اللعبة، فيزداد شعورهم بأنهم كذلك، هم تماماً كالمنفي الذي يختصر الناس كل أفعاله بـ (المنفى)، دون قصد أجبته بأن المنفى سجن كبير.

لمَسَتْ يدٌ كتفي، التفتُّ فشاهدت وجهاً بديناً، اعتذر عن تأخره، فقد كان في قاعة أخرى يحضر أحد دروس الفلسفة، جلس بمحاذاة كاترين، وبلا مقدمات قال إنه التقى ببشار الأسد منذ سنوات طويلة، «بشار كان يقللي يا عمّو، وهلأ صار رئيس جمهورية»، لا يستطيع أحدٌ أن يحدس بما يفكر فيه هذا المجرم، سألني عما إن كنت لاجئاً سياسياً، لم ينتظر الجواب، بل أتبعه بعبارة مفادها أن سورية انتهت، لكنه ما زال يتذكر ماضيها الذي عايشه مع عشرات ممّن يحكمون باسم النظام اليوم.

يتحدث العربية بطلاقة، ويكفي أن يوجه إلى محاوره نظرة واحدة لكي لا ينسى إلى الأبد ما يملك من دهاء العالم، حاول أن يتذكر اسم مدير فرع «أمن الدولة» في سورية، فأخبرته بأنه «علي مملوك»، «نعم نعم، عملنا معاً، ثم أسستُ منظمة سرية داخل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، قبل أن أسافر إلى ليبيا، ثم إلى السودان حيث اعتُقلت، أنا القائد كارلوس».

«جاك» ينظر إلى ساعته، وعلي يهديني القصيدة رقم 1835، فخلال عشرين عاماً قضاها في السجن كتب ألفي قصيدة مخطّطاً إياها بيده، كانت القصيدة مرفقة ببطاقة خَطَّ فوقها عبارات مقفاة بالفرنسية، منها «الحرية حفلة فوضى، حيث يرقص الحكماء والمجانين معاً»، وقّع باسمه الكامل: «فؤاد علي صالح»، وهو مُتهم بسلسلة من الأعمال الإرهابية، منها تفجير قنبلة في شارع «رين» الباريسي عام 1985، حيث أوقعَ ثلاثة عشر قتيلاً وثلاثمئة جريح.

غادر السجناء باستثناء «كارلوس» و«علي»، كل منهما يقف إلى جانب مني، و«جاك» يُطل برأسه خارج القاعة مستعجلاً إياي كي أخرج، ترحّم كارلوس على «جورج حبش» «رفيق الثورة والكفاح المسلح» كما أسماه، وامتدح حزب البعث كفكرة، «لكن البعثيين أخطؤوا في تطبيقها»، قلتُ له إن الأنظمة العربية الديكتاتورية هي التي احتَضَنته، وإن أكثر من قتلهم كانوا مدنيين، كما أنه تعاون مع جهات متناقضة في انتماءاتها، فعن أية ثورة يتحدث؟ ردّ بأنها «الثورة الأممية ضد الإمبريالية». كان علي يستأنف دعوته لي إلى التشيّع، بينما كارلوس يسألني عما إن كنت علوياً أم سنياً؟ بعثياً أم شيوعياً؟ نفيت كل ذلك وزدت بأنني من «بني آدم».

وأنا أغادر القاعة، طلب علي عنواني، فكتبت عنواناً وهمياً، من حسن الحظ أن الوقت قد نفد، فلم يعد لدينا ما نناقشه، وعند الخروج من

البوابة الأخيرة للسجن، بينما كانت الشمس تغرق في الجهة الغربية من المدينة، بحثتُ عن العصفورين، لكنهما كانا قد اختفيا وراء شجرات السرو المتمايلة.

هل أنا يهودي؟

منتصف الليل في مترو باريس، مدّ يده وتلمّس جيب رجلٍ يجلس في الجهة المعاكسة له، كان وجه النشّال مقابل وجهي، ولا أحد يراه غيري، أشار إليّ بحاجبيه كي أتغاضى عن الأمر، نظرت إليه نظرة حادة، لم يجد شيئاً ينشله من جيب الرجل، تحدث مع رفيقه بلهجة مغربية عربية، أدرت وجهي عنهما، حتى وصلنا إلى محطة «روبيسبيير».

وقف النشّال، اقترب مني وطلب منديلاً، لم أستجب لطلبه، سألني عن اسمي، لم أرد، خلال ثانية كانت كفّاه حول عنقي، قال لي بالفرنسية: «أنا أكره اليهود، أنتم قتلة، حيوانات، تكرهون المسلمين، سأحطم فمك، سأقتلك»، كاد أن يخنقني، أمسكت بيديه ودفعته، تراجع، توقف عند بوابة المترو، كانت مفتوحة لينزل الركاب، أخرج سكيناً من جيبه، «يا يهودي، يا حقير، انزل لترى ما سأفعله بك»، وقف أحد الركاب وركله، سقط فوق رصيف المحطة وتبعه رفيقه، كنت مصعوقاً، قلت للجميع: «لست يهودياً، لكنني الآن كذلك!».

المترو يصفّر، أُغلِقت البوابة، فتح النشّال النافذة وبصق عليّ وعلى الرجل الذي ركله، تحرك المترو، بكت إحدى الفتيات، أرادت النزول

في المحطة التالية والعودة لتعلّمه الأدب، هدّأها صديقها، وصلنا إلى المحطة الأخيرة، وتفرّق الجميع.

كلما تشاجَرت جدتي مع جدي، كانت تقول: «أصلاً إنتو عائلة «سليمان» أصلكن يهود، مو غريب تظلموا الناس!»، لم أعرف سبب تكرارها لهذه العبارة حتى سألت عمي، فأجاب بأن أحد أجدادنا خلال الحكم العثماني كان تاجراً يهودياً في دمشق، لكنه أعلن إسلامه. بعد سنوات بحثت في شجرة العائلة، كل ما عثرت عليه أن والد جدي «يونس سليمان» كان قد هاجر إلى «القطيفة» التي تقع على بعد أربعين كيلومتراً شمال دمشق، ككثير من العائلات التي تركت العاصمة خلال الانتداب الفرنسي.

بقي أصلنا اليهودي غامضاً وسرياً، فكلمة «يهودي» في قريتنا، كما في سائر أنحاء العالم العربي، تعني الوضاعة، البخل، الإجرام، الغدر، الحقد. في طفولتي، لم أكن بحاجة إلى أن أسأل عن سبب كره اليهود، فكثيراً ما حذّرنا الكبار من الاختلاء بيهودي، لأن النبي محمداً قد قال: «ما خلا يهوديٌّ بمسلم إلا همَّ بقتله». كان جدي الذي يملك محل أحذية في «القطيفة»، يذهب أسبوعياً إلى دمشق ليشتري البضاعة من بائع يهودي، وأحياناً، حين يعود مساء، تسأله جدتي عما إن كان جائعاً، فيجيبها بأنه تغدى عند البائع اليهودي، فترد عليه بأن ذلك حرام، فـ«أهل الكتاب» لا يجوز اتخاذهم أصدقاء.

في العطلة الصيفية، عندما كنا نذهب إلى الجامع لنحفظ القرآن، كان الشيخ يردد أمامنا هذه الآية «لتجدَنَّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا» (سورة المائدة، الآية 82)، ثم يروي غزوة «بني قريظة»، التي ذبح فيها النبي محمد أربعين يهودياً، وقيل ثلاثمئة، ثم استولى على أراضيهم وأموالهم وسبى نساءهم وأطفالهم، لأنهم تعاونوا

مع بني قريش في غزوة «الخندق»، وبعد كل هذه المرويات والنصوص، لم أعد أستغرب أن تتلفظ جدتي بكلمة «يهودي» كلما أرادت شتم جدي.

يتداول المسلمون أسطورة مسخ اليهود لأنهم اصطادوا السمك في يوم السبت، لأنه يوم العطلة المقدسة، على أنها قصة حقيقية، فاليهود بالنسبة إلى كثير من المسلمين ما زالوا «أحفاد القردة والخنازير»، كما يعيشون على وهم نصر عظيم وُعدوا به قبل يوم القيامة، ففي الأحاديث المتواترة نقرأ أن الجنود اليهود سيختبئون في نهاية الزمان وراء الأشجار، فتنطق وتقول: «يا مسلم، إن ورائي يهوديٌّ، فتعال واقتله، سوى «الغرقد»، لأنه من شجر اليهود ـ حسبما روى مسلم في صحيحه ـ وبالمقابل يعيش كثير من اليهود على أوهام وعودهم بأرض الميعاد، وكراهيتهم للعرب، التي أنتجها تاريخ طويل من العنف المتبادَل.

كانت حادثة «النشّال» السابقة قبل مجزرة «شارلي إيبدو» بشهرين، في باريس، هاجم نشّال عربي منفيّاً عربياً من عائلة مسلمة لأنه ظنّه يهودياً بسبب شكله، عليّ أن أشكره الآن، فقد ذكّرني بأصلي اليهودي، وبالحاجة للتأكد من نسبي، مع أن هذا الأصل قد لا يكون موجوداً، وحتى لو وُجد فإنه لن يغيّر شيئاً من حياتي، على كلٍّ، سواء كنت يهودياً أم لا، فإنني يهودي جداً حين يتعلق الأمر بمحارق «الهولوكوست»، أو عندما يتحدث المتطرفون الإسلاميون عن إبادة اليهود، أنا يهودي وأفتخر بنضالي ضد الأنظمة والأديان التي تضطهد اليهود، وفي الوقت نفسه، أنا ضد سياسة إسرائيل مع الفلسطينيين المدنيين.

فرنسوري

1

دائماً أتوه في حي «ستراسبورغ»، تماماً كما كنت أتوه في دمشق القديمة، حين دخلت إلى أحد معابر الحي لأول مرة شعرت بأنني في سوق «الحميدية»، كان ذلك بعد أيام من وصولي إلى باريس، أحاول أن أتذكر الطريق إلى ذلك المعبر وأنا تائه في الحي الآن، كان اسمه معبر «بْرادي»، وهو مليء بالفخارات والتّحف والأواني النحاسية التي سبق أن كان بعضها معروضاً يوماً ما في سوق «الحميدية»، ألوان هذه الأواني جاءت إلى فرنسا مهرّبةً في جعبات ذخيرة «جيش الانتداب»، أما فساتين الحرير فقد سلَّ خيوطها آخرُ جندي فرنسي من سوق «الحرير» في دمشق، الأبواب الخشبية ذاتها، والمطاعم وواجهات المحلات أيضاً، في هذا المعبر يردد المنفيّ السوري كلمات «ديناميت» و«سوق» و«غزو» و«بارود» و«كحول» و«غزالة»، فكلّها مستخدمة في العربية والفرنسية وتؤدي إلى المعنى ذاته، هذا المعنى هو ما يبحث عنه المنفيّ مرآةً له.

أخيراً وصلت إلى المعبر، بعد كثير من البحث، فالضياع وعدم تذكّر العناوين مشكلة لا أستطيع التخلص منها، لدي مرض النسيان أمام

الجغرافيا، لم أحفظ أبداً خريطة أو جهة، أحياناً كانت تكفيني لافتة أو حفرة، عربة خضار أو عطر فتاة بقي في ذاكرتي لأعرف أين أنا، أخترع طرقات خاصة بي، تبدو مضحكة لمن يرافقني، فهي معقدة وتزيد من بعد المسافة، لكنني أتوه إن لم أسلكها، أما هنا فلا أستطيع التمييز بين الروائح والأضواء والمحلات الكثيرة.

ازدحام العابرين في أحد الشوارع الفرعية يُشعرني بأنني في حارة شعبية بسورية، يكاد عديد المقاهي أن يزيد على عديد الناس، أين سأجلس؟ أختار مقهى تونسياً يقدّم الأركيلة والشاي بالنعناع، وراء الطاولة أخلع نظارتي، لا أرى من الوجوه والأبنية سوى ألوانٍ متداخلة، تبدو قضبان الشبابيك المفتوحة مائلة كأطواق التين اليابس التي كانت جداتنا تعلّقها على الجدران، تلك البلاد لم تُدمّر، فهأنذا أستطيع أن أراها هنا، حتى دون أن أرتدي نظارتي.

2

صديقي «حسين» يقضي إجازته الصيفية في إحدى قرى لبنان، أهالي القرية يصرّون على أنه أميركي، لا أحد يعرف لماذا، فور وصوله يختلفون حول عمل «الأميركي»، بعضهم يقول إنه خبير اقتصادي، آخرون يؤكدون أنه عالم آثار، «حسين» علّمني الفرنسية، وساعدني في الحصول على أوراق الإقامة والسكن في باريس، سبق أن أقام عامين بدمشق خلال عمله في الملحقية الثقافية للسفارة الفرنسية، وبحكم عمله التقى بمعظم المسؤولين السوريين، لكنه كان يسارياً مناوئاً لحكم «البعث»، وحين انطلقت الثورة السورية، كرّس كل وقته لمساعدة السوريين، يستيقظ صباحاً ويتهيأ لـ«ثورة»، يتنقل بين الدوائر الرسمية لتأمين

أوراق اللاجئين، ويعطي لهم دروساً مجانية في اللغة الفرنسية، إضافة إلى أنه ترجم عشرات الشهادات والمقالات لمعتقلين وكتّاب سوريين من العربية إلى الفرنسية، «حسين» الذي لا يعرفه أحد، قدّم لسورية أكثر مما قدّمته المعارضات جميعاً.

وصل «حسين»، وها هو ذا كعادته يطلب أركيلة بعد يومٍ شاقٍّ من العمل.

ـ أين كنت؟

ـ في المظاهرة الأسبوعية من أجل سورية، في ساحة «شاتليه».

وجهه نحو السماء، يسحب نفسَاً من أركيلته، ثم ينظر إليّ بزاوية عينه مبتسماً:

ـ الثورة مستمرة..

ـ بعد هذه السنوات، ربما أنت الوحيد الذي ما زال متحمساً للثورة!

«حسين» يعرف دمشق كما يعرف جيبه، وحين أذكرها أمامه يفرح مثل أب يتحدث عن ابنته، ينفث نفَس أركيلته كمن يتنهد حنيناً، ليبدأ بسرد حكاياته في مقهى «الروضة»، كان يطلب تجديد جمر الأركيلة، فينادي الكرسون على «أبو نارة»: «نارة لحسين»، لكن «حسين» لا يعرف لماذا سمّي بهذا الاسم، ربما لأن اسمه الفرنسي يبدو غريباً في سورية، لكن وجهه الأوروبي لم يتناسب مع «حسين»، هو يحمل الجنسية الفرنسية فقط، وفرنسي أباً عن جد، وُلد في باريس، وأمضى معظم عمره فيها، لكنه بقي «أميركياً» في لبنان، و«حسين» في دمشق، وبجانبه الآن لاجئ سوري.

في سورية لم يعد مُعترفاً سورياً، بعد أن غيّر النظام بطاقات الإقامة، وفي باريس لا يحمل الجنسية الفرنسية، كما يبدو إرهابياً، بوجهه العربي ولحيته التي لم يحلقْها منذ شهر، لسانه أصبح فرنسياً، وذاكرته عربية،

أمه حمصية وأبوه من ريف دمشق، في حمص كان حمصياً، وفي القرية ريفياً، أمضى عمره على مفترق الطرق، فالتقى بالجميع، وبقي لا أحد.

يقول حسين: كنت أخرج من السفارة، أتمشى حتى قلعة دمشق، ثم أدخل إلى سوق الحميدية..

أقاطعه: بوظة بكداش!

يشير إليّ بسبابته كمن يتذكر عيداً: يمين، منتصف السوق، بعد ذلك أتابع إلى «النوفرة»، كنت أقيم في فندق بجانب «الحلبوني»، نسيت اسمه.

ـ أنا درست السنة الأخيرة من الثانوية في الحلبوني، هل كان الفندق قريباً من باعة الكتب على الأرصفة؟

يضحك منتشياً: باعة الكتب المستعملة! كنت أشتري العشرات منها بأسعار رمزية، كانت البسطات قريبة من جسر «الرئيس».

ـ يلعن روحه!

يضع «نبريش» الأركيلة على الطاولة، يعبّر بيديه وهو يقول:

ـ وإذا تجاوزنا الجسر، بجانب نهر «بردى»، نمشي قليلاً، ثم نتجه يميناً، فنجد مقهى «الهافانا».

ـ يميناً أم يساراً؟

يُخرج خريطة «دمشق» من محفظته، يفتحها، نتابع الاتجاهات، فنجد أن الاتجاهين صحيحان، في دمشق، كل الطّرُق لا تفضي إلى طُرق..

تختلط جملنا، لم نعد نعرف من يتحدث، أنا أم هو، ينهض الظلان، ظل «ليونيل دونا ديو»، حسين، الفرنسي «الأميركي»، وظلي الـ«الفرنسوري»، ألتفت إلى المقهى، فأكتشف أنني كنت أجلس بين كرسيين، الغروب يقترب، والظلان يختفيان.

جناية الأسماء

هكذا مرَّ بنا ابن قتيبة الدينوري بكتابه «أدب الكاتب»، كان الطابور يتقدّم لتسليم ملفات التسجيل في السكن الجامعي، وصلتُ إلى الموظف فنبّهني إلى أنني نسيت ختمَ البلدية، وعليّ أن أعود إليها، ناشدته أن يتغاضى عن الأمر، فتقديم الطلبات يكاد ينتهي، كما أن جميع المعلومات مرفقة وموثّقة، فأعاد النظر إلى الملف، وعندما رأى اسمي قال: مشكلتك عويصة.

ـ لماذا؟

ـ عمر.

ـ ما يعني؟

ـ سنّي!

كان ابن قتيبة قد خصص في كتابه فصلاً بعنوان «أصول أسماء الناس»، مُرجعاً إياها إلى معانٍ إنسانية طبيعية، فقد انتسب العرب قديماً إلى أسماء النباتات والحيوانات اتقاءً لشرها أو اعتزازاً بها، لكننا في كتب تراثية أخرى كـ «الأغاني» و«ألف ليلة وليلة»؛ نكاد لا نجد أسماء، بل ألقاباً تدل على مهنة، كـ«الصياد» و«الحدّاد»، أو على دين أقلّي،

«نصراني» أو «يهودي»، فالاسم كان يأخذ دلالته من خارجه لا العكس، أما التصنيف الطائفي الذي نشهده اليوم فهو ارتداد إلى عصر أكثر انحطاطاً من عصر القبيلة.

كان أبي ينتظر ضيفه الثاني وقد قرّر أن يسميه: «عمر»، بسبب عشقه لشخصية «عمر بن الخطاب»، لم يعترض أحد من العائلة، لكنهم بعد سنوات بدؤوا يختلفون حول أيٍّ من الـ«عمرات» سوف يكون؟ قائداً مسلماً قوياً مثل عمر بن الخطاب؟ أم عادلاً مثل عمر بن عبد العزيز؟ آخرون كانوا أكيدين من أنه سيكون شاعراً وطنياً مثل «عمر أبو ريشة»، أو جميلاً مثل «عمر بن أبي ربيعة»، لماذا لم يتوقعوا أن يصبح مغامراً كـ«عمر الخيام»؟ وحدها جدّته تنبأت بأن مستقبله «عمر المختار»، ولا أذكر أنهم فكّروا يوماً بـ«عمر الشريف».

أجلس وحدي وأنادي بصوت خافت: «عمر»، فيتردد الصدى في أحشائي، كأنني أغفو هاوياً في بئرٍ وأحدُّ ما أعرفه وقد نسيت اسمه يوقظني.

في قاموس المعاني نجد أن أصل اسم «عمر» مشتق من العُمْر، أو من «الإعمار»، هو أيضاً جمْع «عُمْرة»، لكن بعيداً عن اللغة، يبقى داخلنا إحساس لا تفسير له يُكسب الاسم شكلاً خاصاً به، حسب كل فرد ومرجعياته وما عاناه أو فرح به تجاه اسمه، فاسمي مثلاً: «عمر» يذكّرني بجناح فراشة مبتور، ربما لأنه ممنوع من الصرف.

يقول أحد الأمثال الهندية: «اسمك هو مصيرك»، لكن الاسم في العالم العربي قد يكون حتفك، اسمي يصنّفني بشكل متأصلٍ وفق الطائفة السنّية، وكأنه رايةٌ كُتب فوقها: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، وحين تجري معاملتُكَ طائفياً تجد نفسك مدفوعاً إلى الدفاع عن عدم انتمائك، مع أنك ترى أن الأمر بلا معنى، فأنت متجاوز لهذا المستوى

من التفكير، لكنك مضطر إليه حين تُغلَّف بإحدى (المعلبات) الدينية، مجرد أن تتبدّل ملامح الآخر، أن تزداد انفراجاً أو انقباضاً فور معرفته باسمك لأسباب طائفية، فإنه يسلبك إنسانيتك.

تُغيّر بعض العائلات أنسابها حين تهاجر من مناطقها في الحروب والاضطرابات السياسية، فتنتسب إلى عائلةٍ أو قبيلةٍ معروفة حماية لها أو بحثاً عن الوجاهة، لكن مشكلتي كانت معاكسة، فنسبتي «سليمان»، وهو إذ يجتمع مع الاسم يصبح: «عمر سليمان»، في بداية الحراك المصري عام 2011، لمع اسم: «عمر سليمان» الذي استلم منصب نائب الرئيس المخلوع «حسني مبارك»، كنت حيثما تنقلت في سورية أسمع اسمي عبر الفضائيات، كثيرون قاموا بإضافتي على «الفيس بوك» ظناً منهم أنني أستخدم اسماً حركياً لإعجابي بالرجل، لذلك غيّرت اسمي، فأضفت إليه اسم أبي «يوسف».

في فرنسا، «عمر» يصنّف صاحبه عربياً، لكنه لا ينمُّ عن دين، أما اسمي الثلاثي الجديد فيبلغ طوله في الفرنسية عبارة كاملة، بعضهم يظن أنه مركب من «عمر يوسف»، وبعضهم يناديني باسمي الثنائي المزعج، لم أكن يوماً سعيداً باسمي، ولم أنشأ مسلماً متديناً كالخليفة المعروف مثلما تمنى أبي، إذاً لم يكن لي من اسمي؛ أقصد من أسمائي، ولو أدنى نصيب.

لكلٍّ منّا قصص كثيرة مع اسمه، مشكلاته وانتماءاته وموسيقاه، وحين لا نختار أسماءنا تتحوّل إلى جناية تُرتكب بحقنا، مع أنه ما من أحد تقريباً قد اختار اسمه! لذلك يبقى الاسم سوراً غير مرئي يفصلنا عن ذواتنا، وفي عصر البروباغندا كثيراً ما يكون الاسم أهم من الإنجاز، هو بوابة أو جدار. أما في الظروف السياسية والاجتماعية المتشنجة التي نشهدها اليوم، فيزداد حصار الاسم لصاحبه، مهما قلت باسمك سيتمُّ

وضعك في إطار ما، هكذا تتمنى أن تغيّر اسمك كي تحطّم الصورة التي أخذها الآخر عنك، والتي لا تُظهر في الحقيقة سوى ما يريدك أن تكونه، في كل الأحوال سئمت من اسمي، لكنني لم أعد أريد تغييره، أريد أن أتعرى منه وأرميه من النافذة، ثم أبقى دون اسم، فحقاً لم أعد أعرف ما أسمّى، ربما هذا هو اسمي.

جدّي غير موجود على «غوغل»

لا أذكر مواليد أحد من عائلتنا، نسيت ما عُمر أبي وما عمر أمي، ولأن هذه الحرب قد أبعدتني عنهم جميعاً، لا أستطيع حتى سؤالهم عبر الهاتف عن مواليدهم، ربما نسيت، وربما لم أكن أعرف أصلاً، فحين كان يمر ميلاد أحد أفراد عائلتنا، تقتصر المعايدة على بعض العبارات الباهتة لا أكثر.

جدّي توفي اليوم، ولا أعرف كم عمره، لكنني أذكر وجهه جيداً، فقد تربّيت في بيته بعد طلاق أبي وأمي، وأكثر ما أذكره منه كفّه المتشققة، فقد كانت تمسك بكفي الصغيرة كل فجر، أثناء اصطحابه لي إلى البستان، نعبر جسراً يسقف ساقية صغيرة تسقي مزارع مدينة «القطيفة»، الواقعة على بعد أربعين كيلومتراً شمال دمشق، بين الأشجار نجتاز طرقات شديدة الضيق، لا تتسع لأكثر من قدم واحدة، يسبقني محذراً إياي من السقوط، ثم نصل إلى أرضنا التي لا تظهر إلا فجأة بعد سلسلة من الأراضي التي يتقاسمها أبناء القرية، أرضنا مغلقة بأشجار التين والزيتون واللوز والرمان والعنب، لا أحد يستطيع الدخول إليها إلا من فُرجة صغيرة بين الشجر، أقفز متجاوزاً الأخدود الذي يعبره الماء،

قد أسقط قبل أن تصل قدمي الثانية إلى الجهة الأخرى، ورائي حقل قمح، وأمامي جدّي يمد كفه الخشنة ضاحكاً من ترددي، بعد ذلك ينحني ويدخل إلى البستان، فأتبعه.

شجرة التين الأكبر سناً كانت صديقته المفضلة، يلمسها بكفّه مطمئناً عليها، يتأمل ثمارها، كانت تشققات كفه شبيهة بتشققات جذع الشجرة. لنعرف عمر الأشجار، يكفي أن نقطعها من جذعها، عدد الدوائر على امتداد الجذع يخبرنا بعدد سنواتها، هكذا، ربما كان عليّ أن أعُدَّ التشققات في كف جدي لأعرف سنوات عمره.

آخر مرة عرفت أنه في الثالثة والستين، كان ذلك في طفولتي، وما زلت أشعر أنه في هذه السن، لكنني لا أذكر في أي عام عرفت ذلك، لماذا أريد أن أعرف عمره؟ هو لم يكن يعرفني، فقد أصيب بالزهايمر قبل سنين طويلة، كان قد نسي حتى الطريق إلى البستان، لكنني حين كنت أذكر شجرة التين أمامه يتذكر، يضع كفه على ثغره، وينظر إليّ بعينين دامعتين، كمن يريد الحديث لكنه غير متأكد مما في ذهنه، يخشى أن يشعر محاوره بذاكرته المتلاشية.

أكتب اسم جدي على «غوغل»، ربما أحصل على معلومة عن وفاته، على صورة، لكن «غوغل» يقدّم لي معلومات عن عشرات الأشخاص الذين تتشابه أسماؤهم مع اسمه، وحين أضيف اسم مدينتي، تظهر أسماء معتقلين ومفقودين وشهداء قتلهم النظام.

هناك رجل ربَّى اثنَي عشر ولداً، ست بنات وستة أولاد، أمضى أربعين عاماً من حياته موظفاً في إحدى الشركات بدمشق، عاش حروباً كان أولها الحرب العالمية الثانية، وآخرها الحرب الأهلية، هذا الرجل توفي اليوم ولا يذكر «غوغل» أي شيء عنه، من قال إن جدي وحده المصاب بالزهايمر؟!

ضرس السيراميك

1

أخاف أن أتعثر وأسقط، فللدرجات ظلال في الضوء، أكاد لا أميز الظل عن الحقيقة، أتابع صعودي على مهل، في غرفة الانتظار طاولة عليها خمس مجلات، لكنني أراها عشراً، هناك طاولة أخرى أيضاً، شبّاكٌ آخر، وبابان، منذ أربع وعشرين سنة وأنا ألعب هذه اللعبة: أرى ظلال الأشياء، أحاول أن أتابعها وألتقطها، فلا أمسك شيئاً، ها هي ذي طبيبة الأسنان توقظني من لعبتي، أستلقي على الكرسي، لم أزر طبيب أسنان من قبل، فأبي وأمي طبيبا أسنان.

كان أبي مَن خلع لي أول ضرس لبنيّ، وقتذاك أنّبني لخوفي الشديد وهو يغرس إبرة المخدر، اتجه نحو الخزانة ليحضِر آلة القلع، عندما عاد فتحَ فمي فلم يجد الضرس، كنت قد خلعته بيدي، فأعطاني خمس ليرات مكافأة على شجاعتي. لم أعد شجاعاً، أنا مرعوب الآن يا دكتورة، تجّهزين إبرة المخدر، أتردد، تحاولين إقناعي، أرفض، تضعين الإبرة في فمي، أعرف أن معظم الناس يخافون من هذه الإبرة، فالفم الذي نقبّل ونأكل ونتحدث به، يبدو غريباً أن تدخل فيه إبرة، صرخت كما لو

أنني أُذبَح، أغلقتِ الباب، قلتِ إنه لم يمر عليكِ مريض بهذا الخوف من قبل، أنا آسف، لكن ربما لدي عذر.

كانت عيادة أبي غرفة من البيت، أعطى إبرة المخدر لأحد المرضى، وتركها في الخزانة، أنزلتها وبدأت أعبث بها، إلى أن غرستُها في البؤبؤ، أجريَت لي ثلاث عمليات في محاولة لإنقاذ عيني، وكان عليّ دائماً أن أدرّبها على النظر مغلقاً العين السليمة، لكن الطلاق وقع بين أبي وأمي، بعد عام من الحادثة، لأنهما كانا يعملان في المهنة نفسها، أمي كانت تغار من المريضات، وأبي الذكوري كان يغتاظ من أمي. أكملت طفولتي في بيت جدي، لم يهتم أحد بعيني، وحين شخّص الأطباء الحالة بعد سنين طويلة، أخبروني بأنه ما من حل.

في البيت، لم أكن أعرف أنني أحوَل، كلما نظرت إلى المرآة أرى وجهي طبيعياً، يعتاد الإنسان على عاهاته كما يعتاد على الحرب، ومع الوقت تصبح العاهة جزءاً منه، لكن الأولاد في المدرسة كانوا يذكّرونني بعاهتي، يسمّونني «الأعور الدجال»، فأبكي، يقومون بحركات تمثيلية أمامي مقلّدين حركتي غير الطبيعية، فأنا أحتاج إلى أن أدقق في الشيء لكي أراه، عندما أقرأ أقرّب رأسي كثيراً من الكتاب، ولم أكن أشارك الأولاد لعب الكرة، لأنني لا أستطيع أن أركّز على جسم يتحرك بسرعة.

مرة لعبت معهم، استعددت، ركضت، وركلت جانب الكرة، سخروا مني، ثم وضعوني حارساً، ضرب أحد اللاعبين الكرة بعنف، لم أستطع صدّها بيَدَي، تلقفتها بخصيَتَي، سقطت مغشياً عليّ، نقلوني خارج الملعب، وحين تمكّنت من الوقوف هربت. وإلى اليوم ما زلت أهرب حين أرى أطفالاً يتقاذفون، أخاف من أي شيء كروي، باستثناء الكرة الأرضية، إذ إنني دائماً قريب منها، فلا أستطيع أن أمشي إلا مطأطئ الرأس، إن لم أفعل ذلك قد أسقط، أحتاج أن أرى المطبات والحجارة

وحواف الأرصفة، لم يفهم أحد ذلك، منذ صغري والجميع يظنني ذليلاً، «ارفع رأسك!»، كانوا يرددون، كما لو أنني جندي في ساحة التدريب الصباحي.

أتحدث الآن ببطء، فالمخدر قد بدأ يسري في أعصاب فمي، لكن الذاكرة منبه قوي، لذلك سأكمل.

2

عليّ أن أقول «عفواً»، فقد اصطدم رأسي بيدك وأنت تطلبين مني أن أنهض لأغسل فمي، لا مشكلة، فأنا أكرر كلمة «عفواً» عشرات المرات يومياً، في أنفاق المترو، حيث يخرج الناس دفعة واحدة، أختنق، أصطدم بهم وبالأعمدة وبالجدران وحاويات القمامة، أقول «عفواً» حتى للحاوية! أشعر برغبة في القبض على كل من حولي وقذفهم بعيداً، لكنني لا أستطيع أن أدخل في مشادّة بالأيدي حتى مع طفل، لأنني أحتاج من عدوّي أن لا يتحرك بسرعة، ولسوء الحظ لا يوجد في العالم عدو بطيء!

إذا وقف أحد إلى يميني، أحتاج أن أدير رأسي كاملاً كي أراه، ولأعرف أنه ينظر إليّ عليه أن ينظر إلى عيني اليُسرى، أما إذا نظر إلى الأخرى، التي يبتعد بؤبؤها عن منتصف العين بالاتجاه الأيمن، فإنه بالنسبة إليّ ينظر إلى أحدٍ آخر.

أرى ضعفَي ما يراه الناس، أرى النجمة نجمتين، وألتقط أشياء لا يراها أحد سواي، أتأمل مرآة في مكان فارغ! أرى وجهين لـ«إيديت بياف»، وأربعة نهود لـ«مارلين مونرو»، أرى قَمَرين، ونصف «بشار الأسد»، كل ما أحتاجه أن أدير رأسي قليلاً، فإن كان الجسم أمامي أرى نصفه فقط، وإن كان على يساري أراه اثنين، هكذا أشعر بأنني اثنان أيضاً، أنا

والآخر الذي يرى الظل، أتحدث مع هذا الآخر دائماً حين أكون وحيداً، في طفولتي كنت أصنع ألعاباً تكفي لشخصين وألعب بها مع آخَري.

هل يبدو ما سبق انفصاماً في الشخصية؟ ربما، لكنه يشعرني بالغنى، طوال حياتي بقيت أتمنى أن أرى بشكل طبيعي، ولو لدقيقة واحدة، كيف سيبدو الشعور؟ لكنني الآن لم أعد أريد ذلك، لأنني أرى أكثر من الآخرين، كما أن حواسي الأخرى تعمل جيداً، مثلاً أستطيع أن أميز الروائح مهما كانت بعيدة، وكأنني فهد، يكفي أن أشم رائحة امرأة مرة واحدة لأعرفها دون أن أراها ولو بعد سنين، وأستطيع أن أحزر من ورائي بحركة واحدة منه، بصوت حذائه أو صوت أنفاسه، كما أميز بين الأشياء بملمسها، أعدّ حقيبتي دون أن أنظر إليها، ومن جهة ثانية، لا أستطيع أن أطلق الرصاص، فلو أمسكت ببندقية أو بمسدس، فقد أصيب شيئاً آخر، هذا أعفاني من خدمة العلَم الإجبارية في الجيش السوري.

3

عندما قبّلت أول فتاة من فمها، سرى ذلك الخَدَرُ اللذيذ في عروقي، فأنساني إبرة المخدر، أنساني أنني كنت مسخرة التلاميذ طوال سنوات طفولتي، قالت لي إحدى الفتيات مرة إنها تحب هذا الحوَل في عيني، فاقتنعت بأن الحب أقوى مخدر!

حين أحلق لا أستطيع أن أرى الجانب الأيمن من جسدي، كثيراً ما تبقى بعض الشعرات على لحيتي أو تحت إبطي الأيمن، وكأنها ما ظلَّ من شَعر خروف افترسه نمر.

مرة اشترى لي أبي أدوات تصليح أسنان بلاسيتيكة، أصلحت أسنان أقاربي، وحلمت يومذاك بأنني سأكون طبيب أسنان، لم يستمر هذا

الحلم سوى يوم واحد، ففي اليوم التالي اكتشفت بأنني قد حطّمت معظم الأدوات في أسنان مرضاي. لا أصلح لأي عمل يدوي، لا أستطيع أن أقود سيارة أو دراجة، لكنني ربما أستطيع أن أقود طائرة، فالسماء تخلو من إشارات المرور ومن الزحام، حقيقة لا أصلح إلا للجلوس وراء كمبيوتري كي أكتب، أراه كمبيوترين، لكنني أميّز الحروف على «الكيبورد»، وبحكم العادة لا أحتاج إلى عيوني للكتابة.

ما حدث حكاه لي أبي وأمي في ما بعد، فقد كان عمري ثلاث سنوات، لا أتذكر شيئاً، ماذا لو لم تكن الرواية حقيقة؟ ماذا لو أن شيئاً آخر حدث وأخفوه عني، كأن يكون أحد الأطفال قد غرز الإبرة في عيني، ربما لم تكن إبرة، ربما شوكة؟ سكين؟ أريد أن أعرف.

المواد الكيميائية تصيبني بالحنين، والدكتورة الأخرى التي بجانبك هي أمي، في حمص، كانت تضع لي عضّاضة تحوي موادّ كيميائية، أمي «صبا»، مريولها الأبيض الفائح بالحنان يشبه مريولك، هذه الأدوات المعدنية أجهل أسماءها، لكنني أعرفها جيداً، أعرف التماعَها في الضوء، كأنها تنظر إليّ، وحين تدخلينها في فمي، أرى أدوات أخرى تدخل خدي، لكنني لن أتحرّك.

ها نحن في جلستنا الأخيرة، لكثرة ما عذّبك فزعي، تعملين دون أي تخدير، «ألف وخزة حفارة ولا إبرة مخدر يا دكتورة!»، بهذا أجيبك وأنت تجهّزين التاجَ من أجل ضرسي، ولأن أحوالي المادية متواضعة، فقد سبق أن اخترتُ أن يكون التاج من الحديد، لكنكِ فاجأتِني بأنك أحطتِ الحديد بالسيراميك، تحاولين وضعه، لا ينجح الأمر، تضيفين إليه المزيد من المواد اللاصقة، تخبرينني بأن الأطباء في فرنسا يُفضّلون أن يُخلع الضرس الصناعي حين يقع حادثٌ ما، على أن يَخلع معه ما تبقّى من الطبيعي، لهذا لا يبالغون في تثبيته، مهنتك يا دكتورة

كانت سبب مأساتي، لكنها الآن نجاتي، هنا في المنفى، حيث لا أحد، لم أعد وحيداً، ضرسي صديقي، سأشكو إليه همومي وأسقيه القهوة كل صباح، وغداً حين أُدفن في فرنسا، وحده ضرسي سيبقى خالداً في التراب، جيد أنه غير ملتصق بجذر الضرس الطبيعي، لا جذر لي، هذا الضرس عيني المفقودة، ربما بعد ألف عام سيحفر أحدٌ قبري منقّباً عن المعادن، سيراه! سيرى شكل أصابعك مطبوعاً عليه، كما سيرى كم تألمت وأنتِ تضعينه، كم فرحت، وكم بحت له بأسرارٍ عن هذه الحرب، هكذا سيعرف المنقّب أنني قد جئت من بلدٍ كان اسمه سورية.

أولُ دم

1

ـ مددتَ رأسك من الشباك، كان الشهيد موضوعاً في سيارة مكشوفة، وأنت في الطابق الأول، اجتاحتك رغبة في أن ترمي بنفسك لتراه عن قرب، أخذتَ الكاميرا ونزلتَ إلى المشفى الميدانيّ كي تصوّره، هل تتذكر؟

ـ نسيتُ ملامحه، كما نسيت مكان الرصاصة بالضبط، أتذكر أن اسمه «هيثم المغربل»، وقد كان ذلك بتاريخ 2011/11/18.

ـ ها أنت ذا تفتح موقع «يوتيوب»، تبحث عن المقطع الذي صوّرته، كنت توثّق الحادثة بصوتك، عرفتَ صوتك، أمامك وجه «هيثم» في الشاشة، يداه الملفوفتان بالقماش، هل كان وجهه هكذا؟ أين جرى دفنه وقتذاك؟ من كفّنَه؟ ومن كان معك في المشفى؟

ـ لم أعد أتذكر.

ـ هيثم كان أول ضحية شاهدتَها في حمص، صوّرتَه كي ينقذ العالم سورية، كنت غبياً، العالم عرف، ولا شيء تغيّر، لكن عليك الآن أن تتذكر

كل ما حدث، لا لكي يتغيّر شيء، بل لكي تنسى، ضبع الزمن ينهش ذاكرتَك، لا تستطيع أن تتذكّر تماماً، ولا أن تنسى تماماً.

ـ أتذكر أن عينَي هيثم كانتا مفتوحتين، لكنني أراهما في المقطع نصف مغمضتين، وقتذاك عدتُ إلى الطابق الأول، كانت رائحة الدم تتغلغل في قلبي وعقلي، أصبتُ بالغثيان، شعرت بحاجة إلى أن أبكي لكنني لم أستطع، بعد ذلك، صوّرتُ عشرات القتلى، ولم أتأثر!

ـ ألست نادماً؟

ـ بلى..

ـ على ماذا؟

ـ كل من سيرى هذه المقاطع سوف تتأذى إنسانيته، وذاكرة البشر مليئة بمشاهد الوحشية والحروب والبشاعة، لقد زدتُها عدداً، لا أستطيع أن أحذف هذه المقاطع من «اليوتيوب»، ولا من رأسي، غارق بالذنب والرعب، أصابع مكسرة، أرجل تُبتر أمامي، صدور مثقوبة، كل هذا أراه من جديد في منامي.

ـ هل تتذكّر الرجل الذي وصل إلى المشفى قبل أن يموت؟

ـ كان يشخر، أخوه بجانبه يستغيث الطبيب كي يعيده إلى الحياة، جمجمته محطمة، لكنه يتنفس! وفجأة نام بصمت، ربما أعطاه الطبيب دواء لعلاج الشخير.

ـ متى رأيتَ أول دمٍ في هذه الحرب؟

ـ دم أخي، أصيب بطلقة في قدمه، أتذكر بنطاله الأزرق المضرّج بالأحمر، رأيت نبيذ التاريخ يُصبّ فوق نهرٍ متجمّد، كان ذلك في الخالدية، سبق أن منعتُه مراراً من المشاركة في المظاهرات، لكنه غافلني وتظاهر وأصيب في جمعة «صالح العلي».

ـ لماذا كنتَ تمنعه؟

ـ خوفاً عليه..

ـ بل خوفاً من أن تتحمّل المسؤولية إن أصابه مكروه.

ـ لكنني بعد إصابته بقيت ثلاث ليالٍ أرى في نومي أنني أحمل سلاحاً وأطلق الرصاص على القَتلة، ودمُ أخي يغطي السماء.

ـ هذا ثأر لا مسؤولية.

2

ـ ليلة البارحة أطفأتكَ الحبوب المنوّمة كما يُطفَأ جهاز التلفاز، وها أنتَ ذا تستيقظ وحدك، بلا حبيبة ولا قريب، أين أبوك وأمك؟ تتناول مضادات الاكتئاب كل صباح، تكتب مثل مجنون، وتدخن أكثر من قطار قديم، كفى كذباً، كل ما كتبتَه في هذا الكتاب كذب في كذب، تحدثتَ عن الهوية والثورة، عن الحرية ودمشق، كذبت حتى صدقتَ كذبتك! أخفيت أنك محاصَرٌ بلعنة الصمت، وأن تلك البلاد لم تقدّم لك ولجيلك إلا الذل والضياع، وحين خرجتم دفاعاً عن الحريات العامة أفقدتكم الثورة حريتكم الشخصية، الأذى الذي ألحَقَته بك الثورة أكبر من ذلك الذي ألحقه بك النظام، استخدمك مَن كنت تظنهم أصدقاء، كانوا يطلبون منك أن تذهب إلى المظاهرة، وهم في بيوتهم، يتصلون بك، تنقل إليهم ما رأيت، فيصرّحون عبر وسائل الإعلام ليحققوا الشهرة والمكاسب.

ـ التاريخ ابن حرام، يُنتجه مجهولون، ولا يُعرف منه إلا القوّادون، صرت أشكّ في كل الرموز والأبطال عبر التاريخ، ففي هذه الثورة، هناك شبان قدّموا كل شيء، قُتلوا ولم يسمع بهم أحد، في المقابل تحوّل كثير من اللصوص إلى رموز، دائماً ينظر الناسُ إلى قائد المظاهرة، ولا أحد يرى الكتفين اللتين تحملانه.

ـ أنت تقول هذا لأنك لست مشهوراً..

ـ بل لأنني أريد أن أبوح بما أعرف، لكنني أشعر باللاجدوى.

ـ حتى الحفرة لن تجدي إن أردت أن تبوح، فالأرض حبلى بالقبور، حيثما حفرت سترى جثة لها وجهك، وقلبك الموقوت بالأسرار.

ـ ما زلت أحلم بثرثرة أمي.

ـ أية ثرثرة؟

ـ في شبابي الأول، كانت تأخذ أوراقي التي أكتب عليها قصائدي وتخبئها في غرفتها، هكذا يعرف كل الجيران والأقارب بما أكتب، كنت أهمل الجوائز التي أحصل عليها والجرائد التي أنشر فيها مقالاتي، أظنها ضاعت، وبعد مدة أفاجأ بأن أمي تحتفظ بها، كثيراً ما حدثني الناس عن بطولاتي التي تسردها أمامهم، وحين كنت أطالبها بأن تخفف من مبالغاتها، لم تكن تجيبني، بل تكتفي بأن تتأمل شيئاً ما، كأنها لا تنظر إلى هذا الشيء، بل إليّ كما تحلم بي، كل ما فعلتُه خلال سنوات منفاي لم أشعر به، وحدها ثرثرة أمي كانت تمنح قيمة لما أفعله، ووحدي الآن أدرك ذلك.

ـ لا تبالغ، أنت لم تنشأ في حضن أمك، لم تنشأ في عائلة، ولم تنشأ في الشوارع، أمضيت عمرك على الأرصفة.

ـ أشتاق إلى حارات طفولتي وشبابي، إلى مدن مررت بها، وتفاصيل عشتها.

ـ الحرب شوّهت التفاصيل، ودمّرت الأماكن.

ـ ما زال كل شيء في ذاكرتي.

ـ ما قيمة الذاكرة أمام زوال الجغرافيا؟

ـ دمشق ما زالت، وأريد أن أراها قبل أن أموت.

ـ دمشق لم تعد تعنيك، ورودها وماؤها، هواؤها وبناتها، حضاراتها وذكرياتك فيها، كلها كانت وهماً، دمشق ملعونة منذ الأزل وسوف تبقى كذلك، مثلها مثل كل مدن تلك البلاد، بلاد الحروب والفتن، فلتُقسم سورية إلى ألف دولة، وليكن لكل دولة علم وجيش وقائد، لم يعد مهماً أن يذهب التاريخ والجغرافيا إلى الجحيم، بل المهم أن لا يُجرح إصبع طفلٍ بعد.

ـ هل عليّ أن أتشاءم؟

ـ لكي تتشاءم عليك أن تتذوق طعم الحياة أولاً، أن تكون ما تريد، ما زلتَ لم تعش الحب ولا الانتماء، أنت لقيط مثل زمانك، لكن أجمل ما في هذا الصباح أنك استيقظت، فأغمض عينيك وسِرْ، لا تتوقف عند أحد، عِش لأجلك، وانسَ بلادَك وأهلك، انسَ اسمك، انسَ دمشق، وامضِ حراً.

صدر من سلسلة «**شهادات سورية**»:

بمساعدة من جمعية «مبادرة من أجل سورية جديدة» ـ باريس:

1. موزاييك الحصار، عبد الوهاب عزّاوي.
2. إلى ابنتي، هنادي زحلوط.
3. بين الإله المفقود والجسد المستعاد، نبراس شحيّد.
4. كَمَن يشهد موته، محمد ديبو.
5. حكايات من هذا الزمن، دلير يوسف.
6. لم أتمدد يوماً على سكة قطار، أحمد باشا.
7. مزهرية من مجزرة، مصطفى تاج الدين الموسى.
8. غرفة تطل على الحرب، إيديت بوفييه.
9. إذا قفزت عن السياج ولم أصب بأذى، عمرو كيلاني.
10. أرض مائدة، ضحى حسن.
11. لم تنته الحكاية بعد، رؤى الإبراهيمي.
12. إكثار القليل، دارا عبد الله.

بدعم من المنظمة الأورو ـ متوسطية لدعم المدافعين عن حقوق الإنسان:

13. رسائل من سورية، وجدان ناصيف.
14. يوميات وقصائد، علي جازو.
15. انسَ دمشق، عمر يوسف سليمان.

كضوء كشّاف يجول في ظلام كهف مغلق، ويتمهل فوق بعض التضاريس، تجول هذه الشهادة في عتمة الذاكرة، القريبة منها والبعيدة، وتنتخب مواقف تسترجع تفاصيلها ودقائقها لتقدم لنا حكاية شاب آمن بالحرية فانخرط في حراك محبّيها من التماع خيط أملها الأول إلى أن قاده شرط الحياة إلى رصيف اللجوء السياسي.

هذه الشهادة تنقلنا من "الخالدية" في مدينة حمص حتى "الطابور العالمي أمام مركز اللجوء (الأوفبرا)" في باريس. إنها حكاية شخصية لكنها أيضا خلاصة لحياة بلد انتفض انتصارا لكرامته فلم يلق أمامه سوى السجن والقتل والتشريد.

بيت المواطن
للنشر والتوزيع